المـركز العـربي للأبحـاث ودراسة السيـاسات
Arab Center for Research & Policy Studies

دراسات | 18 أيلول/ سبتمبر، 2022

تراجيديا أفغانية: البشتون وطالبان والدولة*

أناتول ليفن

ترجمة: جمال العميدي

* هذا النص ترجمة لـ:
Anatol Lieven, "An Afghan Tragedy: The Pashtuns, the Taliban and the State," Survival, vol. 63, no. 3 (May 2021), pp. 7-36.

تراجيديا أفغانية: البشتون وطالبان والدولة

سلسلة: دراسات

18 أيلول/ سبتمبر، 2022

أناتول ليفن

باحث وأكاديمي وصحافي بريطاني، عمل أستاذًا في جامعة جورج تاون في قطر، وأستاذًا زائرًا في كينغز كوليدج في لندن، وزميلًا في مؤسسة أميركا الجديدة، وزميلًا في معهد كوينسي للحكم الرشيد في واشنطن العاصمة. تشمل مجالات خبرته واهتماماته: التمرّد والإرهاب والحركات الإسلامية، فضلًا عن الثقافة والاستراتيجيا. وتركّز كتاباته على باكستان وأفغانستان وروسيا والاتحاد السوفياتي السابق والولايات المتحدة الأميركية. وبوصفه خبيرًا، عُقِدت له جلسات استماع في البرلمان البريطاني ووزارة الخارجيّة والكومنولث البريطانيّة، والكونغرس الأميركي ووزارة الخارجية الأميركية، ووزارة الخارجية الفرنسية. حاز جائزة أورويل. أحدث مؤلفاته كتاب **تغيّر المناخ والدولة القومية: الحالة الواقعية** *Climate Change and the Nation State: The Realist Case* (بينغوين، أُعِيد نشره في عام 2021). وتُرجم له إلى العربية، كتاب **أمريكا بين الحق والباطل: تشريح القومية الأمريكيّة** (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008).

ترجمة: جمال العميدي

باحث ومترجم وصحافي عراقي. حاز شهادة الماجستير في اللسانيات (1998) عن رسالته: «مفهوم العلامة عند الجاحظ». عمل في التسعينيات محرّرًا في مجلتي الثقافة الأجنبية والطليعة الأدبيّة العراقيتين، ونشر عددًا من المقالات والبحوث في الصحف والمجلات العراقيّة والعربيّة. في عام 2003، عمل محرّرًا في صحيفة المدى وبي بي سي وقناةالحرة، ثم انتُدِب خبيرًا في قسم الإعلام والاتصالات في منظمة اليونسكو بين عامي 2005 و2006. وفي عام 2007، انتقل إلى الكويت ليعمل محرّرًا للشؤون العراقيّة في صحيفة أوان الكويتية. عاد إلى العراق في عام 2011، وعمل مديرًا لتحرير صحيفة العالم، ثم مديرًا لتحرير صحيفة الصباح ومسؤولًا عن مراقبة الجودة في قناة العراقيّة. هاجر إلى الولايات المتحدة في عام 2013، وعمل هناك مدرّسًا للغة العربيّة والعلوم الإسلاميّة. يعكف حاليًّا على إكمال كتابه أرشيفات صدّام: مقال في الذاكرة، وقد نشر منه فصلين في صحيفة درج اللبنانية.

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2022

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاث فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات

شارع الطرفة، منطقة 70

وادي البنات

ص. ب: 10277

الظعاين، قطـر

هاتف: 40354111 974 +

www.dohainstitute.org

المحتويات

مقدمة 1

ضعف القومية البشتونية 3

العداء للدولة الإصلاحيّة 5

سلطة الدولة ضد الفوضى المنظّمة 9

بشع وغير شرعي ومُعدَم: تاريخ الدولة الأفغانية الحديثة 11

طالبان والنظام الإسلامي 14

المراجع 19

مقدمة

تذكر إحدى المقولات القديمة أن مرتفعات البشتون في أفغانستان تقاوم سلطة الدولة بشدّة، وأن أهلها أساتذة مخضرمون في "فن اللاحكم"، على حدّ تعبير جيمس سكوت[1]. ومثل كثير من المقولات الأخرى، يبدو أن لهذه المقولة أساسًا حقيقيًّا في الواقع التاريخي، فقد منحتهم شعوب المنطقة، لا المراقبون الغربيون، اسم "ياغستان" Yaghistan، الذي يعني أرض الخروج على القانون أو التمرّد أو المعارضة[2]. يتوافق هذا الاسم وما يشير إليه أيضًا بشكل وثيق جدًا مع الأنماط الموجودة في المناطق القَبَلية المسلِمة الأخرى، تلك التي حلّلها ابن خلدون في المغرب، أول مرّة بشكل منهجي، في القرن الرابع عشر الميلادي.

إذا أردنا الإشارة إلى فشل الدولة الأفغانية في جعل مجتمعها «مفهومًا»، والعبارة لسكوت أيضًا، فسنلاحظ أن مجمل التاريخ الأفغاني الحديث يفتقر تمامًا إلى أي إحصاء يمكن الوثوق به. أما تعريف ماكس فيبر الكلاسيكي للدولة، بوصفها «مجتمعًا بشريًا يدّعي 'بنجاح' احتكار الاستخدام المشروع للقوة المادية، في حدود إقليم ما»[3]، فإنه لا ينطبق على أفغانستان. فحتى حين كانت الدولة الأفغانية في أوج قوّتها، أصّرت الجماعات المحلية، بنجاح كعادتها، على الاحتفاظ ببنادقها، وخوض نزاعات مسلّحة محدودة مع مجموعات قرابية أخرى، فضلًا عن إعدام عناصرها الذين انتهكوا الأعراف التقليدية للجماعة.

لعل هناك استثناءً واحدًا حدث في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين، نتيجة استيراد الدبابات والطائرات الحديثة، حينها أصبح جيش الدولة الأفغانية قويًّا بما يكفي، ليردع انتفاضة قَبَلية عامة. استمر هذا التفوّق ثلاثين عامًا، ثم انهارت الدولة بعده إبّان الثورات المناهضة للشيوعية وتمرّد الجيش في أواخر السبعينيات. ومنذ ذلك الحين، لم تنجح أي دولة أفغانية، بما في ذلك طالبان الأقرب عهدًا، في احتكار القوة المسلّحة المنظّمة على كامل التراب الأفغاني[4].

لكن تحجب هذه الحقيقة الأساسية فارقًا بسيطًا مهمًّا؛ إذ لم تكن القبائل البشتونية تعادي سلطة الدولة نفسها بشكل قاطع. علينا أن نتذكّر أن القبائل البشتونية أنشأت مملكة أفغانستان، ووافقت غالبية البشتون بطيب خاطر على حكم طالبان في المناطق الريفية خلال التسعينيات. مع ذلك، فإن البشتون كانوا يعادون ثلاثة أنواع من الحكومات: الأولى، تفتقر إلى الشرعية التقليدية أو الدِّينية؛ والثانية، تجبرهم على دفع ضرائب عالية؛ والثالثة، الحكومة التي تستعجل تغيير نمط حياتهم ومجتمعهم وتقاليدهم. إن الدور الشرعي للدولة، من وجهة النظر القَبَلية البشتونية التقليدية، محدود جدًّا على الرغم من أهمّيّته. فبصرف النظر عن قيادة الشعب ضد الغزاة، يتعلّق الأمر بالفصل في الخلافات القَبَلية، والحيلولة دون تطوّرها إلى حالة حرب دائمة[5]. واستنادًا إلى الوجود التقليدي

---

1 James C. Scott, *The Art of Not Being Governed: An Anarchist History of Upland Southeast Asia* (New Haven, CT: Yale University Press, 2009).

2 أو في الترجمة الموفّقة لمايكل باري إلى الفرنسية:
Michael Barry, *Le Royaume de l'Insolence: l'Afghanistan, 1504 - 2011* (Paris: Flammarion, 1984).

3 Max Weber, "Politics as a Vocation," in: H. H. Gerth & C. Wright Mills (trans. & eds.), *From Max Weber: Essays in Sociology* (New York: Oxford University Press, 1946), pp. 77-128, at: https://bit.ly/3Bb524c; "Politik als Beruf," *Gesammelte Politische Schriften* (1921).

4 ينظر: Antonio Giustozzi, *The Army of Afghanistan: The Political History of a Fragile Institution* (London: C. Hurst & Co., 2016), pp. 7, 124 - 131.

5 يروي جي ويتني أزوي في عمله الكلاسيكي عن لعبة **بوزكاشي** في عهد الرئيس سردار داود خان إبان السبعينيات، حكاية حيّة ومُسلّية تُصوّر الدور التقليدي للدولة في حلّ النزاعات المحلية (على الرغم من أنها حدثت هذه المرة بين الأوزبك في شمال أفغانستان). وقعت المباراة في قندوز، ومثّل الفرق المتنافسة "رجال كبار" محليون وفصائلهم. خرجت المباراة عن السيطرة بشكل جدّي؛ ما هدّد باندلاع أعمال عنف على نطاق واسع، فتولّى الحاكم هناك مسؤولية إصدار الحكم. أحد المساعدين "سلّم الوالي بندقية ذات ماسورة قصيرة، غُطّيت فوهتها بقطعة قماش مخملية خضراء. ومن دون إحداث جَلَبة قط، وضع الوالي البندقية أمامه على الطاولة. بقيت هناك طوال فترة ما بعد الظهر، من دون أن يمسّها أو يكترث بها أحد، لكنّها كانت حقيقيّة من دون شك. شكّلت تلك البندقية المغطّاة بقطعة قماش خضراء [اللون الأخضر رمز للإسلام، على الأرجح] رمزًا لسلطة الحكومة وأداة للدفاع عن النفس في حال تفاقمت الأمور، وتهديدًا مثاليًّا خفيًّا. ولم يكن هناك مزيد من الخلافات بشأن القرارات". ينظر:
G. Whitney Azoy, *Buzkashi: Game and Power in Afghanistan* (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1982), p. 103.

للأسلحة في المجتمع البشتوني، والهوس الثقافي بالشرف والمكانة الاجتماعيّة، لاحظ الصحافي أناند غوبال أن «التركيز على دور الدولة في حلّ نزاعات المجتمع البشتوني ليس كافيًا [...] ففي قندهار بعد عام 2001، صارت الخدمات القضائية لطالبان، إحدى المزايا الرئيسة التي تتمتّع بها الحركة، في مقابل الدولة»[6].

تكمن التراجيديا البشتونية م ن الناحية العملية، في أن معارضة تدخُّل الدولة تُؤدّي عادة إلى رفض الدولة المتطورة؛ لأنها تحتاج إلى زيادة الضرائب لتغطية تكاليف التنمية، وتجد صعوبة بالغة في بناء نفسها وفق التقاليد، فضلًا عن أنها بحكم تعريفها، يجب أن تباشر تغيير المجتمع.

يتعاطف سكوت - بوصفه فوضويًا - من دون قيد أو شرط مع شعوب التلال في جنوب شرق آسيا، وهم يهربون من الدول المحلية ويقاومونها. لكن تاريخ أفغانستان السوداوي، ربما يشير إلى عكس ذلك؛ إذ إن الشيء الوحيد الأسوأ من وجود الدولة، هو عدم وجودها أصلًا. إن المعضلة التراجيدية تتلخّص بالفعل في مَثَل بشتوني قديم جدًا، يقول: «الضغينة التهمت الجبال، والضرائب التهمت السهول»[7].

تكمن القيمة الكبرى لمقاربة سكوت، في أنها تذكّرنا بشيء نسِيَته المجتمعات الغربيّة منذ عهود طويلة. إن الغالبية العظمى من الخبراء الغربيين الذين حاولوا تطوير أفغانستان بعد عام 2001، أو تظاهروا بذلك، لم يتمكنوا ببساطة من استيعاب البشاعة الشديدة التي يتميّز بها معظم الدول في التاريخ، ولا سيما في مراحل تكوّنها، وهذا أمر يُشاركون به على الأرجح نظراءهم السوفيات قبل عشرين عامًا. كتب رجل شرطة بريطاني - هندي مشهور، في القرن التاسع عشر، عن تاريخ جنوب آسيا بشكل عام، قائلًا: «يندر وجود أي فكرة عن المعاملة بالمثل والواجبات والحقوق بين الحاكم والمحكوم [...] ففي الهند، كان الاختلاف بين جيش الأمير وعصابة السارق، في تقدير عموم الشعب، يكمن في الدرجة ليس غير، فكلاهما كان يقود تجارة الإمبراطورية Padshahi Kam»[8].

بعبارة أخرى، إذا كان البشتون قد ثاروا في كثير من الأحيان ضد الدولة الأفغانية، سواء بدعم خارجي أم من السكان الأصليين، فغالبًا ما كانت لديهم أسبابهم الوجيهة.

مع ذلك، هناك علاقة متبادلة بين بشاعة الدولة والمقاومة القَبَلية. إن إقناع القبائل بدفع الضرائب، يتطلّب قدرًا كبيرًا من البشاعة، أو التهديد بها في أقل تقدير. ما الدولة من دون ضرائب؟ إنها إما ظِلّ واهن وإما تابع لدولة أجنبية ومعوناتها. تعرّضت أفغانستان لغزو هذَين المصيرَين مرارًا وتكرارًا خلال القرنَين الماضيَين.

إن مفتاح فشَل الغرب في بناء نظام جديد في أفغانستان بعد عام 2001، يكمن في عجزه عن فهم العزلة التاريخية عن الدولة، سواء بالنسبة إلى الأفغان بشكل عام، أم البشتون بشكل خاص. فضلًا عن ذلك، يرفض الغرب الاعتراف بأن طالبان ربما كانت أفضل ما بقي من خيارات بناء الدولة، بالنسبة إلى القرويين البشتون في أقل تقدير، إذا أخذنا في الحسبان تاريخ الدولة الأفغانيّة البائس، وانهيارها نتيجة ذلك. طالبان ليست خيارًا جيدًا في أي حال من الأحوال، لكنها أفضل الخيارات المُتاحة.

---

6 Anand Gopal, "The Taliban in Kandahar," in: Peter Bergen (ed.), *Talibanistan: Negotiating the Borders Between Terror, Politics and Religion* (New York: Oxford University Press, 2013), pp. 23 - 24.

7 Akbar S. Ahmed (trans.), *Mataloona: Pukhto Proverbs* (Karachi: Oxford University Press, 1975), p. 47.

8 W. H. Sleeman, *Rambles and Recollections of an Indian Official* (Karachi: Oxford University Press, 1980 [1844]), pp. 394 - 396.
أما التجارة الإمبراطورية Imperial Trade (أو الأفضلية الإمبراطورية Imperial Preference)، فهي نظام للتعريفات الجمركية أو اتفاقات التجارة الحرّة المتبادلة بين الوحدات المكوّنة للإمبراطورية البريطانية. وبوصفها أفضلية كومنولثية، فإنها شملت لاحقًا الأمم الأعضاء في الكومنولث. (المترجم)

ضعف القومية البشتونية

كانت القومية وسيلة معيارية مكّنت الدول الحديثة في المجتمعات المحافظة من إضفاء الشرعية على سلطتها، بغية إجراء إصلاحات جذرية، بداعي أنها ضرورية في تقوية الدولة ضد أعدائها (يطّرد هذا الأمر في الكثير من المجتمعات الشيوعية أيضًا، وإن كان على نحو مستتر إلى حدٍّ ما). ومن الأمثلة الشائعة على ذلك، الإصلاحات الجذرية خلال حقبة ميجي في اليابان، ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا. أما في أفغانستان التي أخذت اسمها من اللغة الفارسية، وأُسِّست على يد سلالة البشتون لتجسّد الآمال القومية البشتونية وعناصر الهوية البشتونية وتقاليد مقاومة البشتون للغزو الإمبريالي البريطاني، فقد تبدو القومية البشتونية فيها مسارًا طبيعيًّا اتّبعته الدول الأفغانية الحديثة. حاولت الدولة المُضيّ في هذه الطريق، في ظلّ حكومة سردار داود خان (كان رئيسًا للوزراء بين عامي 1953 و1963، ورئيسًا بين عامي 1973 و1978).

لكنّ كثيرًا من الوقائع المحلية أسهمت في تعثّر تلك الاستراتيجيا؛ فهناك في المقام الأول، فتوحات السيخ والبريطانيين التي دفعت غالبية المُنتمين إلى الإثنية البشتونية إلى رفض العيش في أفغانستان منذ نحو مئتي عام، وهذه في الواقع، مدة أطول بكثير من عمر الدولة الأفغانية. قد يلجأ إلى ذلك الآن واحد من كل ثلاثة بشتونيين، وذلك بفضل التنقّلات السكانية الهائلة بين أفغانستان ومناطق البشتون في باكستان، حتى إن كراتشي (لا كابول أو قندهار أو بيشاور) قد تكون أكبر مدينة بشتونية في العالم.

على الرغم من أن البشتون يمثّلون النسبة الأكبر من سكان أفغانستان (تشير التقديرات العامة إلى أن نسبتهم نحو 40 في المئة، لكن لا يمكن الجزم بذلك)، فإنهم ليسوا غالبية كما يحلو لهم أن يعتقدوا. ولا ريب في أن تبنّي الدولة القوي للقومية الإثنية البشتونية، يخيف الأقليات الإثنية الكبيرة الأخرى في أفغانستان ويُغضبها؛ لذا ينبغي لأي حركة تمرّد تسعى لحكم أفغانستان برمّتها، أن تقدّم بعض التنازلات في أقل تقدير، مراعاة لمشاعر تلك الإثنيات. كان فشل حركة طالبان المستقرّة في مناطق البشتون في القيام بذلك إبان التسعينيات سببًا رئيسًا في السرعة التي انهارت بها، وهي تواجه هجوم الولايات المتحدة [الأميركية] في عام 2001. ويمكن العثور على مثال واضح نوعًا ما، على الطريقة التي يميل بها البشتون المتعلّمون والليبراليّون إلى التجاهل الكامل لدور الإثنيات الأخرى في أفغانستان وآرائها، ومن ذلك ما ذكره أبو بكر صِدّيق في كتابه **القضية البشتونية: المفتاح الذي لم يجد حلًا لمستقبل باكستان وأفغانستان**؛ حيث وردت في الصفحة 271 كلمة «طاجيك» (وهو شعب يمثّل نحو ربع سكان أفغانستان) ثلاث مرات لا أكثر[9]. في العالم الحقيقي، لا يمكننا تجاهل طاجيك أفغانستان.

كما اقتحمت القومية الأفغانية - البشتونية التي تروّج لها الدولة، عقبة الواقع الجيوسياسي المحلي. ينبغي لأي برنامج للتعبئة الوطنية البشتونية في أفغانستان، أن يجعل من أهدافه الرئيسة إلغاء «خط دوراند»؛ وهو الخط الذي رسمه الرّاج البريطاني British Raj ليمثّل منذ عام 1947 الحدود الفاصلة بين أفغانستان وباكستان، وهو يمرّ وسط مناطق الإثنية البشتونية. في خمسينيات القرن الماضي وأوائل ستينياته، أطلق سردار داود حملة لإلغاء عقوبة الإعدام في أفغانستان. ومع أنه حشد لها عددًا من المثقّفين البشتونيين الصغار في البلاد، لكن حالَ ضعفُ الدولة دون أن تنتشر الحملة بشكل فاعل بين الجماهير، حتى إن غير البشتون في أفغانستان، قابلوها باللامبالاة أو العدائية الصريحة.

أدّى ذلك إلى كارثة على مستوى العلاقات الأفغانية - الباكستانية. باكستان أكبر من أفغانستان بكثير وأقوى منها، وتقع مباشرة في طريق أفغانستان الرئيسة المؤدّية إلى البحر. نتج من استراتيجية سردار داود فرض حصار باكستاني على التجارة الأفغانية، أسفر عن أزمة اقتصادية رهيبة في أفغانستان. في إثر ذلك، أُقِيل سردار داود من منصبه على يد ابن عمه الملك محمد ظاهر شاه. وبعد عشرة أعوام، عاد سردار داود إلى

9 Abubakar Siddique, *The Pashtun Question: The Unresolved Key to the Future of Pakistan and Afghanistan* (London: C. Hurst & Co., 2014).

الحكم بانقلاب عسكري، الأمر الذي قوّض شرعية الأسرة الحاكمة، ومهّد الطريق أمام انقلاب شيوعي كارثي حدث بعد خمسة أعوام. ونشأت مخاوف جديدة من انتقال المشاعر الوحدوية في أفغانستان (والهند) إلى بشتون باكستان؛ ما دفع الحكومات الباكستانية المتعاقبة إلى التدخّل في أفغانستان عبر دعم عدد من الوكلاء، الأمر الذي انتهى إلى صعود طالبان.

من ناحية أخرى، تتّضح القوة الباقية للقومية البشتونية في أفغانستان من خلال واقعة عدم الاعتراف الرسمي لأي حكومة أفغانيّة بخط دوراند (بما في ذلك طالبان التي حظيت بدعم كبير من باكستان)، على الرغم من الفوائد الجلية التي قد تنجم عن هذا الاعتراف.

وفشلت الدولة الأفغانيّة التي يقودها البشتون في اجتذاب بشتون باكستان فشلاً ذريعًا، فيما أثارت عداءً كارثيًّا في أوساط الدولة والجيش الباكستانيَين. قد يهتف ناشطو البشتون الباكستانيون مثل حركة «بشتون تحفّز» بشعار: « Larao Bar, Yaw Afghan» (الذي يعني تقريبًا: البشتون على جانبي الحدود أفغان)، لكن حقائق السياسة الباكستانية البشتونية مختلفة تمامًا. وقد لخّص لي ناشط في حزب عوامي الوطني البشتوني المعتدل، سبب ذلك بالقول: «كلّنا يعرف أن برنامجنا القديم للوحدة مع أفغانستان قد مات؛ إذ لا أحد في كامل قواه العقلية يريد أن يصبح جزءًا من أفغانستان، سواء اليوم أم في المستقبل المنظور. باكستان بلد سيئ، لكن أفغانستان كابوس منذ جيل مضى»[10].

انتقل المركز الاقتصادي لعالم البشتون إلى باكستان على نحو حاسم، حتى قبل بدء الكارثة الأفغانية في العقود الأربعة الماضية. إن لدى النخب السياسية والتجارية الباكستانية - البشتونية، ولا سيما شركات النقل البشتونية التي تربط شمال باكستان بميناء كراتشي (مع احتساب العدد الكبير والمتزايد من السكان البشتون)، دوافعَ قويةً جدًا تمنعهم من الانخراط في أي مسعى أفغاني يهدف إلى تدمير باكستان.

على قدر مساوٍ من الأهمية، لم تستطع الهوية الوطنية الأفغانية - البشتونية، ادّعاء الولاء المطلق للبشتون، على نحو يميّزها بوصفها القومية الأقوى، على الرغم من كونها قوة جبّارة. كانت الولاءات القَبَلية والدِّينية وما زالت، تحظى بالأهمية القصوى. إن فقر الدولة ولا مبالاة سكان الريف البشتون بالتعليم أو معاداته، يعني أن الدولة الأفغانية لا تستطيع تقليد الدول الناجحة في التحديث الوطني في أماكن أخرى، وغرس الوطنية البشتونية الواضحة من خلال نظام مدارس حكومية ريفية واسعة الانتشار.

تُرافِق هذا كله عزلةُ كثيرين من البشتون عن الدولة الأفغانية منذ ولادتها. أُنشِئَت مملكة أفغانستان خلال أربعينيات القرن الثامن عشر، فيما كان يُعرف بالأراضي الحدودية الشرقية لإيران، على يد زعيم قبلي أصبح جنرالًا في خدمة العاهل الإيراني. ينحدر أحمد شاه أبدالي من سلالة أرستقراطية رائدة، تهيمن على واحد من اتحادَين قبليَين بشتونيَين رئيسين. وقد أُعِيدت تسمية أبدالي بالدُّرّاني، بعد نيله لقبه الجديد «Dur-e-Durran»، أو لؤلؤة اللآلئ. أدّى ذلك إلى نشوء خلاف دائم مع الاتحاد الكبير الآخر؛ الغيلزاي، بتقاليده الأكثر ديمقراطية ومساواة[11]. من اللافت أن الغيلزاي شكّلوا التكوين الأساسي للحركات البشتونية الراديكالية كلها

---

10 Anatol Lieven, *Pakistan: A Hard Country* (London: Penguin, 2011), p. 379.
أُسِّس حزب عوامي الوطني البشتوني في عام 1986، في إثر اندماج عدد من الأحزاب في باكستان. انتُخِب عبد الولي خان رئيسًا له، وبقي في منصبه حتى عام 1990. تولى ابنه أصفنديار خان رئاسة الحزب بين عامي 2002 و2003. يتبنّى الحزب نزعة إثنية قَبَلية في توجهه الأيديولوجي، وله نفوذ في قبائل البشتون، ولا سيما في المناطق الحدودية بين باكستان وأفغانستان. حافظ على علاقات جيّدة مع الحكومة الأفغانية، وتبنّى فكرة تطوير المنطقة القَبَلية الحدودية التي يقتسمها بشتون أفغانستان وباكستان، للحدّ من المشكلات التي تعانيها، ولا سيما الأمنية. في نيسان/ أبريل 2013، لقِي رئيس الحزب مُكرّم شاه مصرعه، بعد أن دمّرت عبوة ناسفة سيارته. وقد أعلنت حركة طالبان باكستان مسؤوليتها عن التفجير. (المترجم)

11 للاطلاع على دراسة كلاسيكية لمجتمع سوات السياسي، ينظر:
Fredrik Barth, *Political Leadership Among Swat Pathans* (London: Athlone Press, 1959); Sultan-i-Rome, *Swat State, 1915– 1969: From Genesis to Merger* (Karachi: Oxford University Press, 2008);

للاطلاع على الحسابات الإمبراطورية البريطانية القياسية، ينظر:
Henry Walter Bellew, *A General Report on the Yusufzais* (Lahore: Sang-e-Meel Publications, 2013 [1864]).

التي ثارت على الحكومات الأفغانية، وصولاً إلى طالبان. يقول توماس بارفيلد في كتابه **أفغانستان: تاريخ ثقافي وسياسي**: «في حين أن حكام الدُّرّاني في أفغانستان (1747-1978) قد نشؤوا في ظل نظام قبلي من البشتون يتّسم بالمساواة، فإنهم قد استخدموا في الحكم نموذجًا هرميًّا كلاسيكيًّا يحصر السلطة في خطوطهم الأسرية. لقد تخلّوا عن المؤسسات السياسية الديمقراطية والفدرالية التي يشيع استخدامها بين قبائل البشتون على المستوى المحلي، واستبدلوا بها الحكم المطلق. لهذا السبب، كانت العلاقة بين قبائل البشتون وقادتها المفترضين مضطربةً دائمًا؛ إذ يستند التعاون (أو الصراع) إلى القضايا المطروحة»[12].

فضلًا عن البيروقراطية التي أنشؤوها بشكل طبيعي لاحقًا، تبنّى ملوك الدُّرّاني ومحاكمهم، الثقافة الإقليمية القديمة المهيمنة للسلطة المَلَكية؛ أي ثقافة الإيرانيين الأتراك الذين حكموا إيران وآسيا الوسطى وشمال الهند. وشمل ذلك تبنّي الفارسية (التي أُطلِق عليها لاحقًا الاسم الأفغاني الرسمي داريDari ، في محاولة لإظهارها أكثر وطنية)، كي تكون لغة الحكومة والثقافة العليا والتجارة والاتصال. لم يقتصر الأمر على البشتون في البلاط المَلَكي والحكومة فحسب، بل اعتمد كثيرون من البشتون في كابول الفارسيةَ لغةً لهم؛ لذلك لم يكن هناك سببٌ وجيه يربط البشتون الريفيين الذين يتحدّثون البشتوية Pashto بالدولة المَلَكية. نما الاغتراب الإثني البشتوني عن الدولة الأفغانية بعد سقوط طالبان في عام 2001، بسبب الصعود الجديد للطاجيك والهزّارة (المحتقَرين والمضطهَدين حتى اليوم) في ظلّ الحكومة الأفغانية، لكن لهذه الظاهرة جذورًا أقدم وأعمق[13].

العداء للدولة الإصلاحيّة

يرفض البشتون الريفيون سلطة الدولة الفاعلة. والعجز عن فهم ذلك كامن في التصوّرات الغربية الخاصة ببناء دولة ديمقراطية سريعة في أفغانستان بعد عام 2001. فشل هذا المشروع حتمًا، بينما كان يمكن أن يؤدّي اتباع مقاربة معتدلة تتسق مع التقاليد والحقائق الأفغانية إلى إنشاء شكل مؤقّت ومحدود من نظام الدولة، في أقل تقدير.

مرَرتُ بتجربة شخصية مدهشة إلى حدٍ ما، عندما شاركت في مؤتمر إيطالي بشأن القانون والنظام في أفغانستان في عام 2002. لم يفهم أيّ مسؤول أو خبير إيطالي حضر المؤتمر هذه النقطة كما أعتقد، على الرغم من أنها تتمتّع بقدر كافٍ من الوضوح لدى أي إيطالي قرأ رواية **المسيح توقّف عند إيبولي** لكارلو ليفي، أو أي حكاية كلاسيكية أخرى تتناول العلاقة التقليدية بين فلاحي الجنوب الإيطالي والدولة. يقول ليفي عن عودته إلى بازيليكاتا (وهي منفاه بقرار من بينيتو موسوليني)، بعد أن سُمِح له بقضاء فترة وجيزة في الشمال الإيطالي: «فكّرتُ في الغربة التي أشعر بها، وعجز أصدقائي المهتمين بالقضايا السياسية عن فهم المنطقة التي كنت أستعجل العودة إليها الآن. سألوا جميعًا عن أوضاع الجنوب، وأخبرتهم ما أعرفه.

قبيلة الدُّرّاني كانت تُعرف سابقًا باسم "أبدالي"، هي واحدة من أكبر قبائل البشتون. يقع موطنها الأصلي التقليدي في قندهار جنوب أفغانستان، ويمتد إلى توبا أشاكزاي في بلوشستان وباكستان، لكنها استقرّت أيضًا في أجزاء أخرى من أفغانستان وأجزاء من خيبر بختونخوا (الإقليم الشمالي الغربي الحدودي من باكستان). يتحدّث معظم أفراد الدُّرّاني البشتوية الجنوبية، وهي فرع من اللغة البشتوية الأمّ. أما قبيلة الغيلزاي، فهي من أشهر القبائل البشتونية التي تستوطن بين قندهار وغزنة في جنوب شرق أفغانستان، وتمتدّ شرقًا باتجاه جبال سليمان داخل باكستان. وسبب شهرتها أنها أكبر القبائل الأفغانية من حيث عدد السكان، وكان لها أبلغ الأثر في تاريخ أفغانستان، وضمّت معظم قادة المجاهدين والشيوعيين. فمن المجاهدين: حكمتيار وسيّاف ومولوي محمد نبي، ومن الشيوعيين: تره كي وحفيظ الله أمين ونجيب الله أحمدزاي. ومن أبرز قيادات الغيلزاي الملا عمر الذي أنشأ حركة طالبان، لذا كان عماد مقاتلي الحركة من الغيلزاي. (المترجم)

12 Thomas Barfield, *Afghanistan: A Cultural and Political History* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2010), p. 4.

13 ينظر:
International Crisis Group, *Afghanistan: The Problem of Pashtun Alienation*, ICG Asia report no. 62 (Kabul/ Brussels: 5/8/2003), accessed on 13/9/2022, at: https://bit.ly/3LbvBuN
البشتوية أو البشتونية أو الباشتو أو البوشتي (بالبشتوية: پښتو، وبالإنكليزية: Pashto)، هي لغة بشتونية تحتل التصنيف الخامس والعشرين من بين اللغات الأكثر استخدامًا في العالم. والبشتوية إحدى اللغات الرسمية في أفغانستان مع الدَّرِّية، وثاني اللغات المحلية انتشارًا في باكستان، من حيث عدد الناطقين بها. تُستخدم في شمال غرب باكستان والمناطق المجاورة لها في أفغانستان، على طول الحدود في جنوب شرق أفغانستان ومناطق أخرى متفرّقة في أفغانستان. (المترجم)

وعلى الرغم من أنهم أنصتوا إليّ باهتمام واضح، فإنه بدا لي أن عددًا قليلًا منهم كان يتابع ما أقول. كانوا يمثّلون طيفًا من الأمزجة والآراء، يراوح بين المحافظين المتشدّدين والراديكاليّين المتحمّسين. كان عدد كبير منهم بارعًا جدًا، وزعموا جميعًا أنهم فكّروا مليًّا في «مشكلة الجنوب»، ووضعوا خططًا لحلّها. لكن مثلما كانت مخطّطاتهم واللغة التي صِيغَت بها مستعصيةً على إدراك الفلاحين، كانت حياة الفلاحين واحتياجاتهم كتابًا مغلقًا بالنسبة إليهم [...] فهمت الآن أنهم كانوا جميعًا، في أعماق لا وعيهم، يعبدون الدولة»[14].

استخدم روبير مونتاني، الضابط الكولونيالي الفرنسي والإثنوغرافي المتخصّص بالبربر، كلمات تنطبق تمامًا على القبائل البشتونية التقليدية، وناقش نظام البربر القَبَلي التقليدي الذي يعارض كليًّا الإدارة والتنمية المنظّمتين: «في دولة حديثة، لا مكان للفوضى المنظّمة الخاصة بكانتونات البربر». لكنه أضاف مباشرة أن فرض هيمنة الدولة (الكولونيالية) على قبائل البربر، «سيجعلنا نشهد نمو أكبر المشكلات على الإطلاق في إدارة مناطق البربر، انطلاقًا من حقيقة أن القانون والنظام كانا يرادفان الاستبداد المطلق ودمار الغالبية في نظر السكان والزعماء، خلال الفترة التي سبقت وصولنا، بينما ظهرت الفوضى والغياب الكلي للقانون والنظام، بوصفهما شكلًا من أشكال العدالة وشرطًا مسبقًا للرخاء الشخصي»[15].

تتّسم التحليلات الغربية بشأن فشل مشروع بناء الدولة الأفغانية على النمط الغربي بعد عام 2001، بالحزم أحيانًا؛ إذ تنتقد الخطط الغربية وتنفيذها (أو عدم تنفيذها) على يد الدولة الأفغانية. لكن أصحاب هذه التحليلات لم يدركوا أن رفض البشتون الريفيين قانون الدولة وسلطتها لا يعود إلى الإخفاقات المعاصرة لهذه المؤسسات ومصادرها الغربية فحسب، بل أيضًا إلى الذكريات الطويلة والمريرة الخاصة باضطهاد الدولة، وانعدام التوافق الأساسي بين سلطة الدولة الحديثة والتقاليد القَبَلية البشتونية. لا يُفترَض بـ «الديمقراطية» أن تُحدث فرقًا يُذكر في هذه الأنماط، وأقصد هنا كل ديمقراطية مارستها أفغانستان منذ عام 2001 في أقل تقدير، ولا سيما مع انتخاباتٍ يديرها أمراء الحرب والزعماء المحليون، واقتسام للمقاعد وفق اتفاق مسبق، وتركّزٍ للسلطة الرسمية في الحكومة المركزية[16].

يتقوّض التحليل الغربي المعياري بشكل أكبر في مجال سيادة القانون تحديدًا، بسبب عداء المؤلّفين الفطري للشريعة؛ إذ ينظرون إليها بوصفها قانونًا رجعيًّا يعارض القانون الحديث وسلطة الدولة، ويعضّد الجوانب السلبية في القانون العرفي، بما يشمل بشتونوالي [بالبشتوية: پښتونولي] الذي يعني نهج البشتون. لكن سينظر التحليل الدقيق القائم على أسس تاريخية إلى الشريعة بوصفها مصدرًا رئيسًا لنظام الدولة، والقانون الشرعي الوحيد المُضاف إلى القانون العرفي الذي يتمتّع بشرعية فطرية بين الشعب الأفغاني.

من ناحية أخرى، ينبغي للمراقبين الغربيين الذين يميلون إلى إضفاء الطابع الرومانسي على القبائل (وهو اتجاه عدد كبير منهم) الإصغاء إلى كلمات ابن خلدون الذي أسّس النموذج الكلاسيكي والدائم لتحليل العلاقة بين القبائل والحكومة منذ سبعة قرون (وهو تحليل يبرز إلى حد كبير أيضًا أهمية بارفيلد الذي كتب أفضل دراسة شاملة للتقاليد الأفغانية): «إن طبيعة وجودهم [البدو] تنافي العمران، الذي هو أساس الحضارة [...] فضلًا عن ذلك، تقوم طبيعتهم على نهب ما يملكه الآخرون. رزقهم يكون تحت ظلّ رماحهم [...] وحين يحوزون العزّة وصولجان المُلْك، فإنهم يملكون قوة مطلقة للنهب كما يشاؤون.

14 Frances Frenaye, *Christ Stopped at Eboli*, Carlo Levi (trans.) (London: Penguin, 2000 [1947]), pp. 236-237.

15 David Seddon, *The Berbers: Their Social and Political Organisation*, Robert Montagne (trans.) (London: Frank Cass, 1973 [1931]), pp. 69 - 70.

16 ينظر:
Noah Coburn & Anna Larson, *Derailing Afghan Democracy: Elections in an Unstable Political Landscape* (New York: Columbia University Press, 2014); Barfield, p. 7.

لا يعود هناك سلطة سياسية تحمي الممتلكات، وتفنى الحضارة [...] فضلًا عن ذلك، يحرص كل بدوي على أن يكون زعيمًا [...] هناك الكثير من السلطات والأمراء بينهم. ويتعيّن على رعاياهم دفع المُكُوس لكثير من السّادة المختلِفين، فتضمحلّ الحضارة وتزول»[17].

اقتضى عملي الصحافي أن أغطّي حرب المجاهدين ضد السوفيات والشيوعيين الأفغان في أواخر الثمانينيات، وشهدت بنفسي كيف أضفى كثيرون من الصحافيّين الغربيّين، وأنا منهم، الطابع الرومانسي الكثيف على التقاليد القَبَلية البشتونية، كما عكسها المجاهدون. إضفاء الطابع الرومانسي هذا كان مدفوعًا جزئيًّا بولاءات الحرب الباردة الغربية، والمودّة البريطانية الموروثة التي يعود تاريخها إلى روديارد كبلنغ والمسؤولين البريطانيين على الحدود، واحترام شجاعتهم التي تثير الإعجاب ومرونتهم في مواجهة الصعوبات الجمّة[18].

حين سقطت الدولة الشيوعية في عام 1992، وتولىّ المجاهدون زمام الأمور، توضّحت الحقيقة الثابتة لرؤية ابن خلدون. لم تنعكس تلك الرؤية كثيرًا عندما دُمّرت كابول خلال القتال بين أحزاب المجاهدين؛ لأن الأمر حدث على أسس إثنية إلى حدٍ بعيد، ويمكن أن يقع في الكثير من المجتمعات المنقسمة إثنيًا، لكنها كانت بارزة في الانهيار الكامل للدولة في مناطق البشتون شرق أفغانستان وجنوبها، فضلًا عن وباء النهب والابتزاز وعجز المجتمع المحلي عن إنشاء مؤسسات الدولة الجديدة وخدماتها الأكثر بدائية.

صُدِمتُ فعلًا أمام هذا الغياب التام لأبسط مؤسسات الدولة وخدماتها، حين زرت المناطق «المحرّرة» في أفغانستان البشتونيّة[19]. اندفعت غريزيًّا إلى عقد مقارنة بين هذه الحال والاتجاه الملحوظ في حركات التمرّد الأخرى في القرن العشرين، من نحو الجيش الجمهوري الإيرلندي، وجميع الحركات الشيوعية تقريبًا، فضلًا عن جبهة التحرير الوطني الجزائرية ونمور التاميل (وطالبان في أفغانستان لاحقًا)، من حيث إنها كلها تُنشئ مؤسسات موازية وبديلة للحكم، تحلّ محلّ الدولة القائمة التي كانوا يقاتلونها. لم يكن عدم توافق أحزاب المجاهدين المتناحرة على هذا مفاجئًا، لكن بدا المجتمع البشتوني المحلي، على هذا النحو أيضًا، غير مكترث تمامًا بالاستحداث الفوري للمؤسسات والخدمات المحلية.

ولم يكن لدى سكان المنطقة سببٌ خاص يدفعهم إلى الرغبة في إعادة تأسيس الدولة الأفغانية، نظرًا إلى تجربتهم السابقة معها. وتكمن النقطة المهمة هنا في أن «استعادة» خدمات الدولة في مناطق البشتون الريفية لم يكن ممكنًا؛ لأنها لم تكن موجودة أصلًا في معظم الأماكن؛ لا مدارس، ولا عيادات طبية، ولا كهرباء، ولا مياه صالحة للشرب. كان وجه الدولة التقليدي الذي يعرفه أهالي هذه المناطق هو الضابط المُجنّد والشرطي القاسي والفاسد، بل حتى جابي الضرائب الأكثر فسادًا[20]. لماذا يرغب هؤلاء الأهالي في عودة رموز الدولة ثانية[21]؟

---

17 Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History*, N. J. Dawood (ed.), Franz Rosenthal (trans.) (London: Routledge and Kegan Paul, 1967), pp. 118-119;

لمناقشة موقف مماثل من القيادة بين البشتون الغيلزاي، ينظر: Barfield, p. 79.
للتعرّف إلى أهمية التقسيم الثنائي عند ابن خلدون بالنسبة إلى التاريخ الأفغاني، ينظر: Ibid., pp. 56, 63 - 65.

18 ينظر مثلًا كتاب راديك سيكورسكي (الذي كان صحافيًا مع المجاهدين، وأصبح لاحقًا وزيرًا لخارجيّة بولندا):
Radek Sikorski, *Dust of the Saints: A Journey Through War-torn Afghanistan* (New York: Paragon Publishers, 1990).

19 ينظر:
Robert Johnson, *The Afghan Way of War: How and Why they Fight* (New York: Oxford University Press, 2011), p. 235.

20 للاطلاع على وصف حيّ وعميق لما كان عليه المجتمع الأفغاني العادي، خارج كابول في السبعينيات (نتحدّث هنا عن شمال أفغانستان وشمال غربها)، ينظر:
David Chaffetz, *A Journey Through Afghanistan: A Memorial* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1981).

21 يسجّل سليمان أيضًا مثلًا هنديًا متداولًا في خصوص الشرطة: "فيما يتعلّق بالسَحَرة، هناك مثل يقول: *Hik dain bait arak charhe*، أي: تبدأ بأن تكون ساحرة قبيحة، ثم تركب ضبعًا. وهو يُضرب للأشخاص الذين يضيفون رعبًا جديدًا إلى الاشمئزاز الفطري الذي يثيرونه بين الناس. وهذا المثل كان ينطبق على رجل الشرطة وزيّه العسكري"، يُنظر: Sleeman, p. 44.

حين رجعت الشرطة بعد إطاحة طالبان، وأنشأ الغرب دولة «ديمقراطية»، كان أفرادها يحملون إلى حدّ كبير، الوجه الفاسد والقمعي نفسه[22]. لم يكن ذلك بسبب إخفاقات أفراد محدّدين في الشرطة فحسب، ولا حتى بسبب دولة كابول بعد عام 2001، كانت المشكلة متجذّرة في التقاليد الوحشية القديمة التي وسَمَت قوات الدولة في المنطقة[23].

من المثير للاهتمام أن الكتاب الرائع **إمبراطوريات الوحل** الذي نشره أنطونيو جيوستوتزي عن أمراء الحرب الأفغان بوصفهم بُناة الدولة المحليين في الأعوام الأربعين الماضية، كان يدور حول إسماعيل خان من هرات، فضلًا عن أمراء الحرب الأوزبك والتركمان، مع بعض الإشارة إلى الطاجيك والهزّارة. ولا يبدو أن أي أمير حرب من قبيلة البشتون، استحقّ أن يكون من بُناة الدولة المبتدئين في نظر جيوستوتزي[24]. عانى الناس وحشية أمراء الحرب المحليّين بعد عام 1992، الأمر الذي ساعد في صعود طالبان، ونسختها من سلطة الدولة الإسلامية، حتى إن الغالبية العظمى من البشتون قبلت بذلك[25].

من ناحية أخرى، لاحظ مونتاني أيضًا، حاله في ذلك حال كثيرين من المسؤولين الفرنسيين الآخرين في المغرب، والمسؤولين البريطانيّين على الحدود الأفغانيّة، التناقض الصارخ بين افتقار القبائل إلى السلطة الشاملة (مع استمرار العداء بينهم)، وقدرتها على التعاون العسكري العفوي باسم الهوية والقيم المشتركة، عند مواجهة عدو خارجي: «مسؤولونا العسكريون في سلسلة جبال الأطلس المتوسط، أدركوا هذا الأمر منذ وقت طويل. يقول أحد أبطال الروائي موريس لوغلَه، عندما ترغب في تهدئتهم، ستجد أمامك بشرًا مبعثرين. عليك أن تتقصّى كل خيمة لتتحدّث إلى ربّ الأسرة الصغيرة. وكي تحقّق أي نوع من السيطرة عليهم، ستحتاج إلى بضع سنين. لكنهم إذا دخلوا معركة، فسينهالون عليك في وقت واحد وبأعداد غفيرة، حتى تشكّك في إمكان تخليص نفسك منهم»[26].

وكحال قبائل المغرب وكثيرين من شعوب «زوميا» التي تحدّث عنها سكوت، كثيرًا ما كانت مرتفعات البشتون منطقة ثورة تستلهم الدِّين، حتى بلغت ذروتها مع حركة طالبان. من هنا، يمكن رؤية تاريخ البشتون أيضًا من منظور تحليل ابن خلدون للأنماط الثابتة للثورة السياسية (بالمعنى الحَرْفي القديم) في المغرب خلال العصور الوسطى. إن قبائل الجبال والصحراء التي تستند إلى تضامنها الشديد (العصبية) ومهارتها القتالية، تستلهم

---

22 في ما يخصّ الفساد والوحشيّة وعدم كفاءة الشرطة الوطنية الأفغانية، ينظر:
Antonio Giustozzi & Mohammed Isaqzadeh, *Policing Afghanistan* (London: C. Hurst & Co., 2013), pp. 21, 78-96, 153-163; Graeme Smith, "No Justice, No Peace: Kandahar 2005–2009," in: Whit Mason (ed.), *The Rule of Law in Afghanistan: Missing in Inaction* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011), pp. 301-307;
بشأن الشرطة المحلية الأفغانية، ينظر:
Human Rights Watch, '*Just Don't Call It a Militia': Impunity, Militias, and the 'Afghan Local Police*' (New York: 2011), accessed on 13/9/2022, at: https://bit.ly/3Bz7KIN

23 ينظر:
Mike Martin, *An Intimate War: An Oral History of the Helmand Conflict 1978 - 2012* (London: C. Hurst & Co., 2014), p. 239.

24 ينظر:
Antonio Giustozzi, *Empires of Mud: Wars and Warlords in Afghanistan* (London: C. Hurst & Co., 2009).

25 Alex Strick van Linschoten & Felix Kuehn, *An Enemy We Created: The Myth of the Taliban/Al Qaeda Merger in Afghanistan, 1970–2010* (London: C. Hurst & Co., 2012), pp. 113-124; Sayyed Mohammad Akbar Agha, *Memories of the Afghan Jihad and the Taliban* (Berlin: First Draft Publishing, 2014), pp. 87-94; Abdul Salam Zaeef, Alex Strick van Linschoten & Felix Kuehn (eds.), *My Life with the Taliban* (London: C. Hurst & Co., 2010), pp. 57 - 77.

26 Barfield, p. 35.
في عام 1997، اقترح الأنثروبولوجي جان ميشود مصطلح مرتفعات جنوب شرق آسيا لدراسة المجتمعات البشرية التي تسكن الأراضي التي ترتفع نحو 300 متر في الجزء الجنوبي الشرقي من اليابسة الآسيوية. يتعلّق الأمر بأجزاء من المرتفعات المتداخلة في 10 دول، هي: جنوب غرب الصين وشمال شرق الهند وشرق بنغلاديش ومرتفعات ميانمار (بورما) كلها وتايلاند وفيتنام ولاوس وكمبوديا وشبه جزيرة ماليزيا وتايوان. يبلغ عدد السكان الأصليين الذي يعيشون ضمن هذه الحدود نحو 100 مليون نسمة، من دون احتساب المهاجرين من مجموعات الغالبية المحيطة بأراضي الوديان الذين جاؤوا للاستقرار في المرتفعات على مدى القرون القليلة الماضية. وتتداخل فكرة كتلة جنوب شرق آسيا جغرافيًّا مع الجزء الشرقي من فكرة فان شيندل عن زوميا المقترَحة في عام 2002، وتتداخل جغرافيًّا أيضًا مع ما سمّاه جيمس سكوت؛ أستاذ العلوم السياسية في جامعة ييل، زوميا Zomia. استخدم سكوت المصطلح في كتابه **فن ألّا تكون محكومًا: تاريخ فوضوي لمرتفعات جنوب شرق آسيا** (2009)، ليجاج بأن استمرارية الثقافات الإثنية التي تعيش هناك توفّر سردًا مضادًا للحكاية التقليديّة الخاصة بالحداثة. أي إن الناس هناك حالما يتعرّفون إلى وسائل الراحة التي توفّرها التكنولوجيا والدولة الحديثة، فإنهم سيتمثّلونها. وكي نستعيض عن القصة التقليدية تلك، يمكن القول إن قبائل زوميا تتكوّن من لاجئين يدركون حكم الدولة وتمركز الاقتصاد بيدها. هربوا على مدى ألفي عام، من اضطهاد مشاريع الدولة في الوديان، مثل العبودية والتجنيد الإجباري والضرائب المرهِقة والعمل بالسخرة والأوبئة والحروب. (المترجم)

دِينًا طُهرانيًا وإصلاحيًا، لإطاحة سلالة حاكمة فاسدة في مدن السهول واحتلال مكانها، لا لشيء إلّا كي تصبح الجماعة الجديدة منحلّة وفاسدة، بانتظار أن تطيحها موجة جديدة من القبائل الثائرة التي تستند إلى الدِّين.

سلطة الدولة ضد الفوضى المنظّمة

كانت أراضي البشتون تخضع لتمييز قديم بين مناطق الاستيطان أو «مناطق الحكومة» Hukumat من جهة، وياغستان من جهة أخرى. صار هذا التمييز يعادل تمييزًا آخر يثير الإعجاب كثيرًا، بين المناطق التي يسود فيها الشرف Nang، وتلك التي يسود فيها الرَّيع والضريبة Qalang[27]. ويتوافق هذا كله بشكل وثيق، مع التمييز المغاربي القديم بين «بلاد المخزن» من حيث هي أرض الحكومة أو الحُكم، و«بلاد السّيبا» من حيث هي أرض الفوضى أو الحرية أو الاضطراب، أو كالحديث النبوي الذي نقله ابن خلدون: «الطاعة تتبع المحراث». من ناحية أخرى، لم يكن العالم التقليدي لقبائل البشتون، عالماً من الفوضى الجامحة. كان في الواقع أقرب إلى مثال نموذجي لـ «الفوضى المنظّمة»، إذا أردنا استخدام العبارة التي صاغها إيفانز - بريتشارد، لوصف النوير Nuer جنوب السودان[28]، ولا سيما مع «بشتونوالي»، وهو القانون الإثني التقليدي للبشتون الذي يوفّر قواعد للنظام يدعمها ناموس أخلاقي يحدّد ما يعنيه «السلوك بوصفهم بشتون» أو عيش حياةٍ بشتونية مستقيمة.

مع ذلك، كان هذا الأمر فوضويًّا بالتأكيد. تلخّص الدور الشرعي للملك أو ممثّله المباشر، في التوسّط من أجل حلّ النزاعات القبَلية الكبرى التي لا يمكن الفصل فيها عبر مجالس الجيرغا Jirgas المحلية التي تضمّ الشيوخ والشخصيات الدِّينية. وحتى يومنا هذا، فإن تلك المجالس المجتمعية (أو العائلات الممتدّة نفسها، في حال وجود نزاع داخلي أو جريمة) تفصل في الغالبية المطلقة في النزاعات والجرائم في مجتمع البشتون الريفي في أفغانستان، من دون إشارة تُذكر إلى الدولة وقانونها. كتب مايك مارتن، وهو ضابط بريطاني خدم في هلمند، عملاً رائعًا في مجال السوسيولوجيا السياسية بشأن المقاطعة Province، توقّع فيه أن يتطابق المستقبل مع الماضي؛ «إذ سنشهد حكم القرى نفسها بنفسها، كما فعلت دائماً. إذا طلب أفرادها من الحكومة شيئًا ما، فسيذهبون إلى مركز الحي (ويعدّ إطلاق اسم «الحكومة» أو Hukomat على مركز المقاطعة في هلمند، أمرًا ذا دلالة). إنهم لا يريدون للحكومة أن تأتي إليهم، والخدمة الرئيسة التي يطلبونها منها، كما فعلوا دائماً، هي الفصل في النزاعات بطريقة عادلة وحيادية»[29].

لم يكن هدف بشتونوالي إنهاء النزاع في المجتمع البشتوني أو معاقبة المجرمين، بل إدارة النزاعات التي تنشب بين الجماعات القَرابية، أو الحدّ منها، أو حلّها عند الإمكان. كما إنه بطبيعته، يعمل بشكل أفضل بكثير في المستوى المحلي؛ إذ يدرك جيدًا المكانة الاجتماعية (أو الـ «name» على وفق العبارة البشتونية) لجميع الأفراد، فضلاً عن السلطة والشخصية، مقارنة بالمستوى غير الشخصي الوطني أو الإقليمي. من هنا تأتي الحاجة إلى وساطة الحاكم في الخلافات الكبرى، تلك التي تتفاقم غالبًا بفعل هوس الثقافة البشتونية بالاسم Nom والشرف Nang والثأر Badal.

---

27 Akbar S. Ahmed, *Millennium and Charisma Among Pathans: A Critical Essay in Social Anthropology* (London: Routledge and Kegan Paul, 1978), pp. 75 - 83.
"بلاد السّيبا" مصطلح تاريخي مغاربي يشير إلى الفضاء أو المجال الذي لم يكن مُؤمّنًا، ولا توجد فيه أجهزة مخزنيّة للسلطان. امتنعت قبائل بلاد السّيبا عن دفع الضرائب، وكانت تعترف بالمكانة الروحية للسلطان فحسب. أما "بلاد المخزن"، فهو المصطلح المقابل الذي يشير إلى المناطق الخاضعة لسلطة الدولة بأبعادها الدِّينية والسياسية والمالية؛ إذ ينهض السلطان نفسه بمهمّات تعيين الموظّفين الساهرين على أحوال القبيلة، من قادة وشيوخ ونُظّار، كما يشرف على حراستها بتكليف القبائل القريبة بحماية الطرق الرئيسة. (المترجم)

28 E. E. Evans-Pritchard, *The Nuer: A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People* (Oxford: Oxford University Press, 1940), pp. 139 - 191.

29 Martin, p. 252.

إن فكرة المواطنة الفردية، أو الحقوق الفردية في الواقع، غائبة، ولا سيما بشأن النساء. أما دور السلطة القَرابية، فموجود تحت السطح دائماً، على الرغم من كونه محتجبًا ومخفّفًا إلى حدّ ما بفعل القيم المشتركة. مثل هذه القوانين القَبَلية التقليدية، تكون، بهذا المعنى، أقرب إلى القانون الدولي العُرفي (الذي يعمل أيضًا في ظل نظام عالمي فوضوي، وتحت تأثير السلطة القَرابية للدول)، منه إلى القوانين المحلية للدولة، سواء كانت غربية أم آسيوية.

لا تتّسم هذه الأنماط من تاريخ البشتون وثقافتهم بالثبات طبعًا، فقد تأثّرت كثيرًا، منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى سبعينيات القرن الماضي، بتطوّر الدولة الحديثة وتمدّدها (مهما كان ذلك ناقصًا وجزئيًا)، فضلاً عن دخول الإمبراطوريّة البريطانيّة المفاجئ في المنطقة. تشكّلت هذه الأنماط على مدى جيلَين ماضيَين، بسبب الحروب الرهيبة التي امتدّت اليوم إلى أكثر من أربعة عقود، عبر التنقّلات الهائلة للاجئين وتجارة الهيروين والتمدّن الضخم، فضلاً عن تدفّق المساعدات والتأثيرات الأيديولوجية الآتية من خارج أفغانستان.

أنجز مايك مارتن والمسؤول السياسي الأميركي كارتر ملكازيان أفضل دراستين عن الريف البشتوني منذ عام 2001 (كلاهما يركّز على هلمند)، تُبرِزان السلطة المستمرّة وهشاشة الولاءات القَبَلية[30]. فمن جهة أولى، تحوّل قادة المجاهدين وأمراء الحرب السابقون جميعًا، إلى «مسؤولين» في الدولة، يجري التنويه بهم استنادًا إلى سلطتهم الجزئية المستمَدّة من الولاء والانتماء القَبَلي، على الرغم من أنهم نالوا هذا التأييد بمساعدة أموال الهيروين والمساعدات الدولية و/ أو المنصب الذي حصلوا عليه من كابول.

في الجهة المقابلة، تجلّت هشاشة السلطة القَبَلية عبر انتصارَين محليّين كاسحَين لطالبان على أمراء الحرب في ولاية هلمند في 1995 - 2006 (من المسلّم به أن هذَين الانتصارَين استغلاّ استياء الجماعات القَبَلية التي خرجت خاسرة من قسمة الغنائم). إن السبب الرئيس الذي أدّى إلى هاتَين الهزيمتَين، بحسب مارتن وملكازيان، هو أن الخصومات العميقة بين أمراء الحرب جعلتهم غير قادرين على التحالف بفاعلية ضد طالبان المنضبطة والموحّدة، فضلاً عن القمع الذي مارسته قوات الدولة الأفغانية المحلية التي كانت تخدم أمراء الحرب أنفسهم، والفساد المنتشر بين أفرادها، ووجود أقلية بشتونية «مهاجرة» محرومة من التصويت، جاءت من أماكن أخرى واستقرّت في مناطق ريّ جديدة خلال السبعينيات[31].

إذا كان الدور الأكبر والأكثر شرعية للدولة في المجتمع الريفي الأفغاني، هو حلّ النزاعات المحلية بين القبائل وأمراء الحرب (الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلاّ من خلال القدرة المعترف بها على استخدام القوة المسلّحة إذا لزم الأمر)، فإن الانقسامات الملازمة للديمقراطية، قد تشكّل عقبة كأداء أمام إنشائها في أفغانستان. يمكن الوصول إلى مثل هذه القرارات وتنفيذها عبر سلطة موحّدة قوية، سواء كانت لحاكم فرد أم لحركة منضبطة وموحّدة، لا من خلال «بناء امتياز مائع»، على حدّ وصف مارتن الدقيق.

يحلو للبشتون الحديث عن التقليد «الديمقراطي» القديم للويا جيرغا أو «المجلس الكبير» (كذاك الذي نادى بأحمد شاه أميرًا). لكن الواقع يقول إن قرارات اللويا جيرغا تُبرَم غالبًا بوجود حاكم قوي، وإن كان بالتشاور مع الزعماء والشيوخ، قبل أن يضفي اللويا جيرغا طابع الموافقة العامة عليها. لا يُنصح حاكم ضعيف بدعوة مثل هذا المجلس إلى الانعقاد، كي لا يتكرّر ما حدث للملك محمد ظاهر شاه الذي قدّم مجلسَ نواب منتخبًا في الستينيات. كانت النتيجة عجزًا تامًّا عن إقرار القوانين، ونشوب الخلافات والضغائن بين النواب، مصحوبة ومغذّاة بمحاولاتهم المحمومة لانتزاع المحسوبية من الدولة، بالوسائل الممكنة كلها.

---

30 Carter Malkasian, *War Comes to Garmser: Thirty Years of Conflict on the Afghan Frontier* (London: C. Hurst & Co., 2013).

31 Ibid., pp. 72-101, 254-256; Martin, pp. 115-125, 132-138, 247-249;
أكد جيوستوتزي أيضًا استمرار القتال بين فصائل المجاهدين والقادة، حتى عندما كانت طالبان على وشك إطاحتهم. ينظر:
Giustozzi, *Empires of Mud*, pp. 80 - 84.

أُجبِرت دولة أفغانستان منذ عام 2001 على استدرار الدّعم من خلال المحسوبيّات والمناصب التي تقدّمها إلى أمراء الحرب المحلّيين والفصائل القَبَلية، من دون أن تمتلك القوة الكافية لفرض إرادتها عليهم، الأمر الذي يلغي كينونتها D'être التقليدية الأساسية في عيون الناس العاديين. أما الانتخابات البرلمانية منذ عام 2001، فتوافقية في أحسن الأحوال، لكنها مخاتِلة (بالمصطلحات الغربيّة)، ولا سيما مع التوزيع المسبق للمقاعد بين أمراء الحرب والفصائل المختلفة. وفي أسوأ الأحوال، تفتح الانتخابات الباب أمام الخصومات القديمة، ممهّدة لجولة جديدة من النزاع بين الفصائل.

بشع وغير شرعي ومُعدَم: تاريخ الدولة الأفغانية الحديثة

في مركز الترابط بين انعدام فاعليّة الدولة الأفغانيّة وبشاعتها، كان هناك افتقار إلى الإيرادات. وُجّهت ضربة مدمّرة إلى القاعدة الاقتصاديّة في المنطقة من خلال الاستيلاء الأوروبي وتطوير طرق التجارة في المحيط الهندي منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. قبل ذلك، كانت أراضي ما يُعرف بأفغانستان الآن الطريق الرئيسة للتجارة من جنوب آسيا ومعظم جنوب شرق آسيا إلى أوروبا عبر الشرق الأوسط.

أدّت خسارة هذه التجارة إلى إفقار المدن الأفغانية، كما دمّرت القاعدة الضريبية في الدول التي تحاول السيطرة على المنطقة[32]. في الجهة المقابلة، كان رفع الضرائب المفروضة على القبائل اقتراحًا شديد الصعوبة دائمًا؛ لأن قبائل البشتون المُدجّجة بالسلاح تمتلك القدرة على قتل جُباة الضرائب، فضلًا عن فقرها ونفورها الطبيعي من دفع الضرائب. إن الجيوش اللازمة لجباية الضرائب من القبائل، ستدمّر الريف وتُفقره وتثير مرارة دائمة وتمرّدًا في المستقبل، وتستهلك قدرًا كبيرًا من الإيرادات المُحصّلة، حتى إن هذا النوع من الجبايات، لم يكن يُطرح ببساطة بوصفه اقتراحًا للدّفع[33]. يقول ابن خلدون: «القبيلة التي تدفع المُكُوس، لا تفعل ذلك حتى تستسلم للرّضا بخنوع. إن الرّسوم والمُكُوس علامة على القهر والإذعان اللذَين تأنَفُهما النفوس الأبيّة»[34].

يؤسّس على ذلك أن أي هيئة حاكمة تحاول بناء سلطة للدولة في الإقليم الأفغاني، تعاني نقصًا مزمنًا في الإيرادات. غزا مؤسس الدولة الأفغانية أحمد شاه مساحات شاسعة من شمال غرب الهند وآسيا الوسطى وإيران، لكنه أنشأ ببساطة إمبراطورية عسكرية وقَبَلية، جاءت بذرتها الأصلية من مصادرة محتويات أحد صناديق الكنوز الإيرانية[35]. استندت تلك الإمبراطورية إلى اتحاد قبائل البشتون، وخضوع الحُكّام ورجال القبائل المحليين لأحمد شاه شخصيًّا، فضلًا عن دفع الجزية بشكل غير منتظم، كلما كان ذلك ممكنًا. لكنّها لم تتضمّن الإدارة المنتظمة أو جباية الضرائب بشكل منهجي؛ لأنه أمر لم يكن يحظى بقبول رجال أحمد شاه من قبيلة الدُّرّاني. وقد استندت أيضًا إلى القوة العسكرية التي استمرت بفضل السّلب (نهب دلهي في عام 1757 مثلًا)[36]، لا بفضل الرواتب العادية التي تأتي من الضرائب. وكما قال بارفيلد: إن «أعظم مصادر دخل إمبراطورية الدُّرّاني،

32 B. D. Hopkins, *The Making of Modern Afghanistan* (London: Palgrave Macmillan, 2008), pp. 110 - 116.

33 للاطلاع على تجارب مسؤول بريطاني حاول جمع الضرائب من قبائل بانو في أربعينيات القرن التاسع عشر، ينظر:
H. B. Edwardes, *Political Diaries 1847 - 1849* (Lahore: Sang-e-Meel Publications, 2006 [1911]).

34 Ibn Khaldun, p. 111.

35 للاطلاع على ماضي أحمد شاه أبدالي وخلفيته وصعوده، ينظر:
Henry Priestley, *Afghanistan and Its Inhabitants*, Muhammad Hayat Khan (trans.) (Lahore: Sang-e-Meel Publications, 1999 [1874]), pp. 57 - 64.
أحمد شاه (1724–1773): مؤسس سلالة الدُّرّانية في أفغانستان، وهو ابن ساماون خان؛ زعيم قبيلة أبدالي. تعرّض للأسر على يد رجال قبيلة الغيلزاي المعادية، وظل سجينًا في قندهار. في آذار/ مارس 1738، أنقذه نادر شاه من الأسر، وكلّفه بقيادة سلاح الفرسان الذي يتكوّن بشكل رئيس من رجال قبيلة أبدالي. وحين اغتيل نادر شاه في عام 1747، رجع أحمد شاه إلى أفغانستان بعد فشله في الاستيلاء على الكنوز الفارسية، وأقنع القبائل المحليّة بمبايعته ملكًا تأكيدًا لاستقلالهم. بويع ملكًا في قندهار في تشرين الأول/ أكتوبر 1747، وما لبث أن غيّر اسم قبيلته إلى الدُّرّاني. (المترجم)

36 Hopkins, p. 87.

كان يأتي من مناطق لم تسيطر عليها بشكل مباشر قط. تلك الإيرادات استمرّت في التدفّق، طالما كان رجال الدُّرّاني مهيمنين عسكريًّا»[37].

بعد وفاة أحمد شاه، نضبت قدرة البشتون على نهب الأراضي المحيطة بها، ولا سيما بعد استعادة القاجاريين في إيران سلطة الدولة إلى حدٍ ما، فضلاً عن السيخ، ثم البريطانيين في شمال غرب الهند. واستنادًا إلى موارد البنجاب الأكثر ضخامةً، غَزَت مملكة السيخ بزعامة رانجيت سينغ وادي بيشاور (وهو أكبر المناطق المأهولة بالبشتون) وانتزعته من الدُّرّاني، وصارت تفرض الجزية بشكل متقطّع، على الكثير من قبائل البشتون التي سبق لها أن دفعتها لأحمد شاه، بشكل متقطّع أيضًا.

أما المؤسس الحقيقي للدولة الأفغانية الحديثة، فهو «الأمير الحديدي» عبد الرحمن خان الذي حكم بين عامي 1880 و1901. وقد قام حكمه على أربع سمات مترابطة، يمكن تسميتها المزيج الأساسي من فن الحكم الأفغاني الناجح: الشرعية التقليدية (التي أتَته من السلالة والاعتراف الدِّيني)، والإعانات الخارجية، والفاعلية في حلّ النزاع، والقسوة المفرطة. وقد ساعده في ذلك عدم تدخّله في حياة رعاياه، ما داموا لا يثورون عليه.

جاء الدعم من الإمبراطوريّة الهنديّة البريطانيّة، بعد أن تخلّت عن محاولاتها الكارثيّة لغزو أفغانستان وشرعت عوضًا من ذلك في بناء حكم عبد الرحمن ليكون حاجزًا أمام الإمبراطورية الروسية. سمحت هذه الإعانات لعبد الرحمن ببناء أسس الجيش النظامي والجهاز البيروقراطي، من دون الحاجة إلى رفع الضرائب المفروضة على القبائل.

أما قسوته الاستثنائية، فربما بالغ المراقبون البريطانيون في جوانبها الأكثر حيوية، على الرغم من توافر الأدلّة على أنها حقيقة لا جدال فيها، الأمر الذي تؤكّده مذكرات الأمير نفسه[38]. ادّعى عبد الرحمن أنه قتل 120 ألفًا من رعاياه، وتلك نسبة كبيرة جدًا من السكّان الأفغان بمقاييس ذلك الزمان[39].

يمكن العثور على توضيح حيّ لطبيعة تراجيديا البشتون تحت حكم عبد الرحمن، في دراسة ديفيد إدواردز للتقاليد الأخلاقية والصراع الأخلاقي بين البشتون أنفسهم، بوصفهم أبطالاً للعصر[40]. يدرس الفصل الثالث الثقافة الأخلاقية لعبد الرحمن، مؤكّدًا ضراوته الشديدة، ليختم بالقول: «في نهاية المطاف، لم يرغب رعاياه الذين خاطبهم بافتخار ... في شيء أكثر من تمزيقه إربًا إربًا». كما يولي إدواردز الأهمية اللازمة لمزاعم عبد الرحمن، بأن طبيعة أفغانستان تجعل مثل هذه القسوة ضرورية، إذا تحتّم على الحاكم أن يحفظ النظام والعدالة.

يروي الفصل الثاني قصة شباب السلطان محمد خان، وهو أحد الشخصيات البارزة في قبيلة صافي Safi التابعة للغيلزاي، التي شاركت في آخر حركات التمرّد القَبَلية الخالصة العظيمة في التاريخ الأفغاني؛ أي ثورات الغيلزاي في النصف الثاني من الأربعينيات. وإذا كانت قصة قسوة عبد الرحمن الشديدة استثنائية حتى بالنسبة إلى حاكم أفغاني، فإن قصة السلطان محمد تلخّص هاجس الشرف والثأر الذي لا يرحم، والذي كان مَرَضيًا حتى

---

37 Barfield, p. 100.

38 للاطلاع على السيرة الذاتية لعبد الرحمن، ينظر:
Sultan Muhammad Khan (ed.), *The Life of Abdur Rahman, Amir of Afghanistan* (Whitefish, MT: Kessinger Publishing, 2009 [1900]); Hasan Kawun Kakar, *Government and Society in Afghanistan: The Reign of Emir Abd al-Rahman Khan* (Austin, TX: University of Texas Press, 1979); Vartan Gregorian, *The Emergence of Modern Afghanistan: Politics of Reform and Modernisation 1880 - 1946* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1969), pp. 129-162;
للحصول على تفصيلات ثرية تخصّ مهندسًا بريطانيًا عملَ لمصلحة عبد الرحمن، ينظر:
Frank A. Martin, *Under the Absolute Amir of Afghanistan* (Lahore: Vanguard Books, 1998 [1912]).
للاطلاع على قصة خيالية رائعة عن حكم عبد الرحمن، رواها طبيب بريطاني عالج حريمه Harem، ينظر:
Lillias Hamilton, *A Vizier's Daughter: A Tale of the Hazara War* (Kabul: Shah M. Books, 2004 [1900]).

39 Khan, pp. 218 - 219.

40 David B. Edwards, *Heroes of the Age: Moral Fault Lines on the Afghan Frontier* (Berkeley, CA: University of California Press, 1996), pp. 33 - 126.

بمعايير الأعراف القَبَلية البشتونية، الأمر الذي لم يكن تأثيره حكرًا على جيرانه فحسب، بل امتد ليشمل بعض أفراد عائلته: «الضغينة التهمت الجبال، والضرائب التهمت السهول». هذه القصة المروّعة هي استحضار مثالي للأنثروبولوجي المُبرّز، كي يصف أنظمة مثل بشتونوالي؛ إذ «يقع الطلاق بين الشرف والفضيلة»[41].

تجلّت محاولة تطبيق برنامج تحديث الدولة على أساس الإيرادات الأفغانية فحسب، بوضوح، في مصير الملك أمان الله خان الذي تولىّ الحكم في عشرينيات القرن الماضي، خلفًا لعبد الرحمن. أسفرت الحرب الأفغانية - البريطانية في عام 1919 ونهاية الحماية البريطانية، عن إيقاف معظم الإعانات البريطانية. من هنا، تطلّب برنامج التحديث الراديكالي لأمان الله زيادات كبيرة في الضرائب الأفغانيّة.

نتيجة ذلك، اندمجت مقاومة القبائل مع ردات فعل طبقات رجال الدِّين المسلمين الذين رفضوا إصلاحات أمان الله الغربية، فضلاً عن ردة فعل رجال الدِّين والنخب القَبَلية بإزاء تنامي سلطة مسؤولي الدولة والقضاة، لتندلع ثورة جماهيرية أطاحت أمان الله في عام 1929، بعد أن هَجَره جنوده الذين لم يتقاضوا رواتبهم. أعقب ذلك فترة وجيزة من الفوضى والحكم في كابول، تولّاها حبيب الله كلكاني (المعروف باسمه المستعار Bacha-ye-Saqao أو «ابن السقّاء»)، وهو جندي طاجيكي سابق، تدرّج من لصّ إلى متمرّد، إذا أخذنا بمجموعة الأدوار المألوفة لقرّاء المؤرّخ إريك هوبزباوم. وبهذا أعادت الميليشيات القَبَلية البشتونية تأسيس النظام المَلَكي الدُّرّاني، بقيادة فرع مختلف من العائلة المالكة.

أصبح استئناف تحديث الدولة في أواخر الأربعينيات ممكنًا، بفضل الإعانات الخارجيّة الجديدة التي قدّمتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، بوصفها جزءًا من الحرب الباردة التي شهدت تنافسهما على النفوذ في أفغانستان. كان هذا البرنامج يهدف إلى إيقاع أفغانستان في الفخ الذي أصاب الكثير من المجتمعات النامية[42]، الأمر الذي وسّع تأثيره الكبير ليشمل الدول الخارجية التي تمتلك أجندات أيديولوجية وجيوسياسية. وبهذا ارتفع سقف توقّعات التقدّم والازدهار الذي لم يتحقّق؛ إذ تكوّنت فئة واسعة من صغار الضباط والمسؤولين الذين لا يمكن أن يتسلّموا رواتب كافية. وعلى الرغم من أن آثار ذلك كانت محدودة جدًا، فإنها تسبّبت بنشوء مقاومة دِينية محافظة، لم يعبرّ عنها رجال الدِّين التقليديون فحسب، بل مجموعات جديدة من الطلاب الإسلاميين الراديكاليين.

كانت النتيجة النهائيّة هي الانقلاب الشيوعي في عام 1978، والثورات المناهضة للشيوعيّة (التي أعادت إلى الأذهان، في نواحٍ معينة، تلك التي كانت ضد الملك أمان الله قبل خمسين عامًا)، والتدخّل العسكري السوفياتي. هكذا بدأت الحروب الأهلية التي ابتُليت بها أفغانستان أكثر من أربعة عقود. ومنذ ذلك الحين، حافظت الدولة «الشيوعية» الأفغانية بين عامي 1978 و1992، والدولة «الديمقراطية» منذ عام 2002 حتى الآن، على توازن قلق بين البشتون والأعراق الأخرى، لكنها افتقرت إلى الشرعية، بوصفها عميلاً للكفار السوفيات والأميركيين على التوالي.

استندت ميزانيّة كلتا الدولتين بشكل كامل، إلى الإعانات التي تقدّمها القوى العظمى الداعمة لهما. وأدّت برامج الإصلاح الخاصة بهما إلى نفور المحافظين المتدينين، من دون أن تتمكّن الدولتان من كسب سكان الريف، سواء بتقديم خدمات حكومية فاعلة، أم بأداء دور الدولة التقليدي المتمثّل في إنهاء النزاعات المحليّة. من هنا، عجزت الدولتان عن تحقيق سيطرة حقيقيّة على معظم البلاد.

---

41 Christoph von Fuerer-Haimendorf, *Morals and Merit: A Study of Values and Social Controls in South Asian Societies* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1967), pp. 218 - 219.

تبدو قوة هذه الإدانة أكبر؛ لأن فويرر - هايمندورف كان واسع الإدراك في نسبيّته الأخلاقية.

42 Timothy Nunan, *Humanitarian Invasion: Global Development in Cold War Afghanistan* (Cambridge: Cambridge University Press, 2016).

طالبان والنظام الإسلامي

في عام 1989، تحدّثتُ مع أحد القضاة (قاضٍ إسلامي) في منطقة محرّرة من مقاطعة باكتيكا، وحدّد لي مسار التاريخ الأفغاني في التسعينيات، الأمر الذي يمكن أن يتوافق إلى حدّ كبير مع أفغانستان بعد الانسحاب الأميركي أيضًا[43]. فحين ذكرت أمامه انعدام مؤسسات السلطة في المنطقة، وخوفي من أن يؤدّي ذلك إلى الفوضى عندما تسقط الحكومة الشيوعية في النهاية، ردّ بأن بشتونوالي سيحول دون ذلك: "إنه لا يوقف الضغائن كلها، لكنه يمنعها من تجاوز الحدّ".

حين تساءلت عن هذا، مشيرًا إلى الكيفية التي أُضعِف بها النظام القَبَلي التقليدي، بسبب الاضطرابات الهائلة للحرب، والقوة المتنامية لأحزاب المجاهدين، والأموال الأجنبيّة، وأمراء الحرب المحليين، وتجارة الهيروين، أجاب: «نعم، قد تكون على حقّ [...] لكن إذا فشل بشتونوالي، فسيكون لدينا حينها الشريعة؛ الشريعة الإسلامية التي يحترمها الجميع، والتي يُعدّ تنفيذها واجبًا عليّ»[44]. بعد ثلاثة أعوام، عمّت الفوضى مع سقوط الدولة الشيوعية، وأعادت طالبان النظام بالفعل، على أساس تفسيرها للشريعة.

أشار ابن خلدون منذ سبعة قرون إلى أهمية الشريعة وقبولها في السياق القَبَلي، واختلافها عن قانون الدولة، وقدرتها على ضبط رجال القبائل، من دون التقليل من روحهم القتالية: "يبدو واضحًا [...] أن التشريعات الحكوميّة والتربويّة تكسر العزيمة؛ لأن تأثيرها المُقيِّد يأتي من الخارج، فيما لا تفعل الشرائع الدِّينية الشيء نفسه؛ لأن تأثيرها المُقيِّد متأصّل فيها"[45].

استندت طالبان، وهي توسّع نسختها من نظام الشريعة، إلى تقاليد قديمة شائعة بين قبائل البشتون. يتعلّق التقليد **الأول** بالشخصيات الدِّينية المحلية التي تمارس الوساطة في حلّ النزاعات القبلية (ويكون هؤلاء غالبًا من السّادة غير البشتون، ممن يزعمون تحدّرهم من [سلالة] النبي محمد [صلى الله عليه وسلم]، وهم إذًا بعيدون عن الولاءات القبلية)[46]. أما التقليد **الثاني**، فهو ميل الزعماء الدِّينيين المرموقين إلى تركيز مواعظهم على الحاجة إلى إصلاح السلوك المحلي، باسم «العودة» إلى القواعد القرآنية والطُهرانية الصارمة التي تحكم السلوك. وبعد وصول البريطانيين إلى الإقليم، ارتبط هذا كلّه في الكثير من الأحيان، بتعبئة القبائل للجهاد ضدّ الكفّار أحيانًا، وضدّ الحكام المزعومين غير المتدينين والمُتَغرِبِنين في كابول، أحيانًا أخرى[47].

هذا يعني أن تلك التأثيرات وقعت خارج نطاق الأعراف القَبَلية البشتونية، بل إنها كانت تتعارض معها بشكل مباشر. دعت طالبان – غالبًا - إلى تغيير الأعراف الاجتماعية البشتونية. فضلًا عن ذلك، كان التأثير العربي الطُهراني حاضرًا منذ البدء، بشكل مباشر أو غير مباشر. هكذا نجد أن سيّد أحمد برلوي الذي سعى لإصلاح العُرف البشتوني، وتعبئة القبائل للجهاد ضد السيخ والبريطانيين، درس في شبه الجزيرة العربية وتأثّر بالوهابيّة. كما هي الحال مع طالبان، كان الجمع بين المكانة الدِّينيّة وكراهية العدو الكافر والمحاولات الطُهرانيّة لتغيير العُرف البشتوني سببًا في نشوء مزيج من الاحترام والنفور الذي كان يُنظر به إلى هؤلاء الدّعاة الذين ينتشرون بين القبائل. وكما كتب إرنست غيلنر، فإن: «الأسلوب المتّبع في إدخال التوحيد الطُهراني في الحياة القَبَلية، يطابق الأسلوب المتّبع في حثّ القبائل على قبول القيادة الشاملة خلال المناسبات الخاصّة. وتوفّر

---

43 للحصول على نسخة سابقة من هذا التحليل في ما يتعلّق بالبشتون الباكستانيين بشكل خاص، ينظر:
Lieven, *Pakistan*, ch. 10-11, pp. 371, 41.

44 Ibid., p. 118.

45 Ibn Khaldun, pp. 96 - 97.

46 Barth, pp. 98-99; W. R. H. Merk, *The Mohmands* (Lahore: Vanguard Books, 1984 [1898]), p. 12.

47 Sana Haroon, *Frontier of Faith: Islam in the Indo-Afghan Borderland* (London: C. Hurst & Co., 2007).

الأزمة الاستثنائيّة التي يشهدها العالم القَبَلي، الثغرة والفرصة أمام هذا الشكل الإيماني 'الأشدّ طُهرًا'، الذي يبقى كامنًا ومحترَمًا، مع أنه غير مرصود عادة»[48].

النقطة المهمة هنا، هي أن الإصلاحات الإسلامية الطُهرانية، تبقى عُرفًا قديمًا بين البشتون، على الرغم من أنها تعيش حالة توتّر مع عاداتهم القَبَلية. ويمكن في الواقع أن نقول إنها قديمة قدم الإسلام؛ إذ تؤدي الشريعة بعض الأدوار الإصلاحية والحضارية بين قبائل البشتون حتى يومنا هذا، كما فعلت تمامًا مع القبائل الوثنيّة في شبه الجزيرة العربية قبل 1400 عام. واللافت أن النساء، عندما تُتاح لهُنّ فرصة الحديث، بغالبيّة كبيرة عادة، فإنهن يفضّلن الشريعة على بشتونوالي[49].

سلّط ابن خلدون الضوء على جاذبيّة الدِّين الطُهراني عند القبائل (التي تختلط فيها كراهيةُ المدينة المُترفة والفاسدة وازدراؤها مع الرغبة في نهبها)[50]. وموّل الدّعاة الوهابيون السعوديون هذه الطُهرانية وشجّعوها في مخيّمات اللاجئين الأفغان في باكستان إبان الثمانينيات، مع أنهم لم ينشِئُوها.

أما بالنسبة إلى مواقف طالبان من النساء، فقد كانت - مع الأسف - متّسقة تمامًا مع التقاليد الريفية البشتونية المحافظة. يقول ملكازيان: «بشكل عام [...] كان اضطهاد طالبان محض تدرّج في قمع البشتون العام للمرأة»[51]. لكنّ هناك انطباعًا بأن هذه المواقف كانت شيئًا جديدًا وخارجيًّا بشكل جذري جاء بعد وصول طالبان إلى العالم الحضري الأكثر تطوّرًا وحداثة في كابول (أو ما بقي منه بعد أربعة أعوام من الحرب الأهلية)[52].

من أجل فهم قوة انجذاب طالبان إلى الشريعة، والطُهرانية الدِّينية بين البشتون (وبعض أفراد الإثنيّات الأخرى)، لا بد من أن ندرك أن الأفغان العاديين لم ينظروا إلى الفوضى والقمع والصراع الداخلي بعد سقوط الدولة الشيوعية، بوصفها أحداثًا مروّعة فحسب، بل عدّوها عارًا أخلاقيًّا وثقافيًّا عميقًا، حاله حال الجهاد ضد السوفيات، بعد أن كان يُنظر إليه على نطاق واسع، بوصفه سعيًا أخلاقيًّا عظيمًا ينظّمه الدِّين.

فضلًا عن ذلك، كان انهيار الدولة الحديثة في مناطق البشتون، وفشل بشتونوالي في كبح جماح الصراع والقمع الذي أعقب ذلك، قد سمح للشريعة أن تكون آخر القوانين الباقية. ربما لم يكن هناك أساس أخلاقي آخر يمكن الاستناد إليه في إعادة بناء نظام الدولة بشكل واقعي. ولا بد من الاعتراف أيضًا، بأن أي سلطة حاولت استعادة النظام، في ظروف أفغانستان خلال منتصف التسعينيات، كان عليها استخدام بعض الإجراءات المفرطة في قسوتها.

بعد الغزو الأميركي في عام 2001، تمكّنت طالبان من السيطرة على سرديّة كبرى واحدة تخصّ تقاليد البشتون، وسرديتَين جمعتَا التقاليد البشتونية مع الإسلام. السردية **الأولى** هي أن البشتون يجب أن يحتلّوا دائمًا السلطة العليا في أفغانستان، على الرغم من تخصيص مكان محترم للإثنيات (السُنِّية) الأخرى[53]. أما **الثانية**، فتقول إن الواجب الدِّيني المطلق يتمثّل في «جهاد الدفع»، أو الفكرة القائلة إن من واجب كل مسلم قتال الكفار الذين يحتلّون أراضي المسلمين[54].

---

48 Ernest Gellner, "Flux and Reflux in the Faith of Men," in: Ernest Gellner, *Muslim Society* (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), p. 53.

49 Lieven, *Pakistan*, pp. 118 - 121.

50 Ibn Khaldun, pp. 125-128; Barfield, pp. 1 - 85.

51 Malkasian, p. 62.

52 للاطلاع على مذكّرات تخصّ ذلك الزمان، كتبها أحد أعضاء طبقة التجار الكابوليين القدامى (البشتون، لكن الناطقين بلغة داري)، ينظر:
Qaid Akbar Omar, *A Fort of Nine Towers* (London: Picador, 2013).

53 Robert D. Crews & Amin Tarzi, "Introduction," in: Robert D. Crews & Amin Tarzi (eds.), *The Taliban and the Crisis of Afghanistan* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2008), pp. 21-36; Abdulkader Sinno, "Explaining the Taliban's Ability to Mobilise the Pashtuns," in: Ibid., pp. 59 - 89.

54 Lieven, *Pakistan*, pp. 47 - 48.

أما السردية الأخيرة، فقد لخّصها لي صديق في بيشاور؛ إذ وضّح سبب اكتساب طالبان الأفغانية كثيرًا من التعاطف حتى من البشتون العلمانيين: «أحد الأسباب الرئيسة للتعاطف مع طالبان هو أن كل بشتوني تعلّم في مهده أن مقاومة الهيمنة الأجنبية جزء مما يجب أن يفعله البشتوني»، الأمر الذي يعني اتّباع العادات البشتونية[55]، ويتجلّى في إشعار طالبان بإيمانهم العميق بتلك السرديّات وتجسيدهم لها[56].

تُعدّ طالبان قوة جديدة بشكل كبير، وإن كان لها جذورٌ محدّدة في تقليد المساواة عند الغيلزاي. إن قادتهم ليسوا رجال دِين مشهورين يتحدّرون من أنساب السّادة، كما كانت الحال بالنسبة إلى معظم الأولياء العظام في الماضي. جاء قادة طالبان من قرى بشتونية فقيرة وعادية جدًّا في جنوب أفغانستان. ويبدو أن ذلك قد أسهم في انضباطهم الداخلي، إذا قورنوا بالأولياء السّادة العظام الذين وجدوا صعوبة بالغة في أن يخضع بعضهم لأوامر بعضهم الآخر.

لم يشكّل هذا الأمر نمطًا جديدًا في تاريخ البشتون. كتب فريدريك بارث عن وجود تقليد طويل يقول إن لحظات الأزمات قد «تُبرِز أشخاصًا أقلّ قدسية» ليكونوا قادة محلّيين للجهاد[57]. مع ذلك، يبدو أن الجذور العميقة لقيادة طالبان في المجتمع البشتوني الريفي الفقير في جنوب أفغانستان قد أسهمت، عبر قدرتها المذهلة غير المسبوقة في تاريخ البشتون، في إنشاء الحركة والحفاظ عليها مرنةً جدًّا وموحّدةً ومنضبطةً (وفق المعايير البشتونية التقليدية في أقل تقدير).

ولما كان لكل قرية مُلّا، تمتّعت طالبان أيضًا بالقدرة على الوصول إلى كل قرية بشتونية بشكل مُمنهَج، للتأكّد من الامتثال لأوامرها، الأمر الذي لم تحقّقه أي دولة أفغانية أخرى (أو باكستانية أو حتى هندية). ينبغي وضع ذلك في مقابل الانقسامات المعروفة داخل طالبان. ويُعدّ التنافس السابق بين مجلسي القيادة في كويتا وبيشاور خير مثال على هذا[58]. ووفق مصطلحات البشتون، فإن الزيادة الراديكالية والمنظّمة في مكانة مُلّا القرية وسلطته، وهو الشخص المتواضع والمحتَقَر في الكثير من الأحيان، تُعدّ حقًا العنصر الأشدّ ثوريّة في تاريخ طالبان[59].

حاربت طالبان الولايات المتحدة ودولة كابول على مدى عقدين من الزمان، تكبّدت خلالهما خسائر جسيمة كان يمكن أن تؤدّي إلى تحطيم الروح المعنويّة، وتجنيد أي جيش آخر على نحو ما. في هذا الجانب، لا يمكنني مقارنتهم إلّا بالشيوعيّين الفيتناميّين، وربما تعلّمت طالبان في الواقع، أهمّيّة الانضباط والتنظيم من الشيوعيّة بشكل غير مباشر[60]. شهد بعض مقاطعات أفغانستان مقتل خمسة حكام طالبانيّين على التوالي، لكنّنا كُنّا نرى، على الرغم من ذلك، متطوّعًا جديدًا يتقدّم لشغل هذا المنصب. يمثّل هذا الأمر تناقضًا صارخًا مع الانتفاضات القَبَلية البشتونية السابقة كلها المُستوحاة من الدِّين، تلك التي نمَت وانهارت بالسرعة نفسها بعد الهزيمة الكبرى الأولى[61].

فضلًا عن الإيمان الدِّيني العميق وكراهية الغزاة الكافرين والعزيمة الصلبة، حظيت طالبان عبر هذه الوحدة والانضباط، بالتفوّق على القوى المنقسمة والفاسدة في دولة كابول، قبل أي شيء آخر. وسواء كانت في

---

55 Ibid., p. 390.

56 Alex Strick van Linschoten & Felix Kuehn (eds.), *Poetry of the Taliban*, Mirwais Rahmany & Hamid Stanikzai (trans.) (London: C. Hurst & Co., 2012).

57 Barth, pp. 61 - 62.

58 Antonio Giustozzi, *The Taliban at War: 2001–2018* (Oxford: Oxford University Press, 2019), pp. 77-121.

59 بشأن المستوى المتدنيّ السابق للمُلّا في القرية البشتونية، ينظر: Ahmed, pp. 53 - 54. يوضّح الوصف الذي كتبه أحمد في السبعينيات، مدى راديكالية التحوّل الذي أحدثته طالبان.

60 Giustozzi, *The Taliban at War*, pp. 1-2, 239 - 240.

61 Olaf Caroe, *The Pathans: With an Epilogue on Russia* (Oxford: Oxford University Press, 1976), pp. 300 - 306.

الحكومة أم التمرّد، سمحت هذه المزية لطالبان أن تؤدّي دورها التقليدي والأساسي بالفصل في النزاعات المحليّة، وهذا ما عجزت عنه دولة كابول. كحال حركات التمرّد الشيوعية والقومية في أماكن أخرى من العالم، نجحت طالبان في هذا من خلال هيكل مُتقن من الحُكّام والقضاة البُدلاء الموزّعين على المناطق الريفية كلها في الجنوب والشرق، فضلًا عن شبكاتها الدِّينية والقَرابية غير الرسمية[62]. يقول ملكازيان «بالنسبة إلى أولئك الذين يزعمون اليوم أن أفغانستان لا يمكن السيطرة عليها، يقدّم حكم طالبان مثالًا صارخًا مضادًّا لهذا الزّعم»[63]. يمكن للمرء أن يقول إن طالبان لا تبدو منظّمة وموحّدة إلّا حين تُقارن بدولة كابول القائمة. لكنّها بعد ذلك، يجب أن تكون أفضل من دولة كابول على المدى الطويل، وتبقى كذلك إذا أرادت الانتصار[64].

يرى ملكازيان (وبعض المراقبين الآخرين) أن تلك الوحدة والانضباط عوّضتا بشكل أفضل نقص التعليم والخبرة لدى كوادر طالبان؛ ما يعني أيضًا أن معظم المسؤولين الحكوميين المحليين الأفغان لم يُعرفوا بتعليمهم. هاتان الصفتان لا تفسّران نجاحهم بوصفهم متمرّدين فحسب، بل كانتا سببًا في تحقيق إنجازَين رائعَين حقًّا للسلطة قبل عام 2001 (وفق معايير أفغانستان في أقل تقدير)، هما: منع زراعة الهيروين والتنفيذ الناجح والشامل لبرنامج منظّمة الصحة العالمية الخاص بالتطعيم ضد شلل الأطفال.

وفق ما تشير إليه هذه الحالة الأخيرة، سيكون من الخطأ التعامل مع مقاتلي طالبان بوصفهم محض متمرّدين قَبَليّين مُلهَمين دينيًّا ومنضبطين بشكل استثنائي. إنهم يرون أنفسهم بطريقتهم الخاصة، ورثةً لتقليد بناء الدولة المَلَكية البشتونية في أفغانستان (على الرغم من أنهم يحتقرون ذكرى النظام المَلَكي الفاسد والغربي). وفضلًا عن انتهازيّتهم المطلقة، وفّر لهم هذا الأمر سابقًا مساعدة في كسب بعض المجنّدين بشكل يثير الدهشة، بمن في ذلك ضباط ومسؤولون بشتونيون شيوعيون سابقون.

فضلًا عن الاتصالات والمحادثات المتواصلة بين أعضاء الحكومة ومقاتلي طالبان الذين ينتمون إلى قبائل البشتون نفسها مع أنهم على طرفي نقيض، تشير هذه النماذج إلى احتمال انهيار الدولة الأفغانيّة في مناطق البشتون بعد الانسحاب الأميركي، في وقت سريع وبشكل سلمي تمامًا. ببساطة، سيعود الجنود البشتونيون إلى ديارهم، فيما يفرّ قادتهم أو يعقدون صفقاتهم الخاصة مع طالبان. هذا الوضع يشبه كثيرًا ما حدث حين تولّى المجاهدون زمام الأمور بعد انهيار الدولة الشيوعية في عام 1992، وعندما اجتاحت طالبان مناطق البشتون بين عامي 1994 و1996 وأزاحت أمراء الحرب المجاهدين.

إن التوفيق بين البشتون الريفيين والدولة، سيكون إنجازًا كبيرًا في ذاته، لكنّ تحقيق هيمنة مستقرّة ودائمة على أفغانستان، يوجب على طالبان القيام بثلاث مهمّات: **الأولى** هي الحصول على إعانات أو مساعدات دولية كافية. قد يكون هذا الأمر متيسّرًا (من الصين وروسيا والاتحاد الأوروبي، إن لم يكن من أميركا)، في مقابل حظر صناعة الهيروين ومحاربة تنظيم الدولة الإسلامية وحلفائه الإرهابيين الدوليين في أفغانستان، الأمر الذي تفعله الحركة أصلًا.

تتعلّق المهمة **الثانية** بتقديم تنازلات كافية أمام الحداثة الثقافية في مدينة كابول في أقل تقدير، من أجل الحفاظ على ما يكفي من التكنوقراط الحاليّين، كي يديموا عمل الدولة الأفغانية، ويديروا المساعدات الدولية. هل يمكن لطالبان أن تتنازل بهذه الطريقة؟ كان يمكن للمُلّا منصور؛ زعيم طالبان السابق الذي قُتِل على يد الولايات المتحدة بحماقة وعبثية شديدتين، أن يفعل ذلك، لكن من يستطيع أن يصرّح بهذا من القيادة الحالية؟ ربما لن يعرفوا هم أنفسهم جواب ذلك، قبل أن يتولّوا السلطة بالفعل.

---

62 Gopal, p. 3.

63 Malkasian, pp. 57 - 60.

64 للاطلاع على منهجية طالبان في التجنيد وبنى القيادة واللوجستيات والخدمات الطبية والاستخبارات بعد عام 2009، ينظر:
Giustozzi, *The Taliban at War*, pp. 159 - 195.

أما المهمة **الثالثة**، فهي الأهمّ، سيتعيّن على طالبان أن تصل إلى تسوية مع الجماعات الإثنية الرئيسة الأخرى في أفغانستان؛ الطاجيك والهزّارة والأوزبك، بما يضمن لهم الحكم الذاتي والعيش في أمان في مناطقهم. من دون ذلك، سيُحكم على مستقبل أفغانستان بحرب أهلية لا هوادة فيها، يغذّيها الداعمون الخارجيون. وبينما يمكن للصين وروسيا أن تتخلّيا عن هذه الأقليات، لا يمكن لإيران أن تنفض يدها من الشيعة الهزّارة، من دون أن تُصاب مكانتها بخسارة فادحة، بوصفها زعيمًا للعالم الشيعي.

إن طالبان ليست قوة بشتونية متجانسة، وقد حصلت على قدر كبير من دعم الإثنيات الأخرى من خلال جاذبية نزعة المحافظة Conservatism الدِّينيّة[65]، لكن قيادتها ما زالت ذات غالبية بشتونية مطلقة، وهكذا تراها الشعوب الأخرى. فضلًا عن ذلك، كان سجل طالبان فظيعًا أحيانًا تجاه الإثنيات الأخرى، حين كانت في السلطة قبل عام 2001 (على الرغم من أن الفظائع كانت موزّعة بالتساوي على الأطراف جميعًا). إن الضغط الموحّد من الصين وإيران وباكستان وروسيا، فضلًا عن الولايات المتحدة إذا فرضنا أن لواشنطن أي مصلحة في أفغانستان بعد انسحاب القوات الأميركيّة، ربما يدفع طالبان إلى القبول بمثل هذا الحكم الذاتي.

لا يمكن تقديم إجابات عن هذه الأسئلة، قبل انسحاب الولايات المتحدة ودخول حكومة كابول الحالية في سَكَرات الموت النهائي. مع ذلك، هناك بعض الأشياء التي تبدو مؤكّدة استنادًا إلى تجربة الجيل الماضي. فمهما حدث في كابول، ستبقى طالبان القوة العسكرية والسياسية الكبرى بين البشتون في أفغانستان. ومهما كانت التسويات التي تقدّمها محدودة، ستبقى وفيّة لنسختها من الثقافة البشتونية الإسلامية المحافظة والريفية التي لن تتنازل عنها قط. وعلى كل من يحاول صوغ مستقبل أفغانستان، أن يفعل ذلك بما يتّفق مع هذه الحقائق.

65 Thomas Ruttig, “Negotiations with the Taliban,” in: Bergen, pp. 435 - 436.

المراجع

Agha, Sayyed Mohammad Akbar. *Memories of the Afghan Jihad and the Taliban*. Berlin: First Draft Publishing, 2014.

Ahmed, Akbar S. (trans.). *Mataloona: Pukhto Proverbs*. Karachi: Oxford University Press, 1975.

Ahmed, Akbar S. *Millennium and Charisma Among Pathans: A Critical Essay in Social Anthropology*. London: Routledge and Kegan Paul, 1978.

Akbar Omar, Qaid. *A Fort of Nine Towers*. London: Picador, 2013.

Azoy, G. Whitney. *Buzkashi: Game and Power in Afghanistan*. Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1982.

Barfield, Thomas. *Afghanistan: A Cultural and Political History*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2010.

Barth, Fredrik. *Political Leadership Among Swat Pathans*. London: Athlone Press, 1959.

Bellew, Henry Walter. *A General Report on the Yusufzais*. Lahore: Sang-e-Meel Publications, 2013 [1864].

Bergen, Peter (ed.). *Talibanistan: Negotiating the Borders Between Terror, Politics and Religion*. New York: Oxford University Press, 2013.

Caroe, Olaf. *The Pathans: With an Epilogue on Russia*. Oxford: Oxford University Press, 1976.

Chaffetz, David. *A Journey Through Afghanistan: A Memorial*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1981.

Coburn, Noah & Anna Larson. *Derailing Afghan Democracy: Elections in an Unstable Political Landscape*. New York: Columbia University Press, 2014.

Crews, Robert D. & Amin Tarzi (eds.). *The Taliban and the Crisis of Afghanistan*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2008.

Edwardes, H. B. *Political Diaries 1847 - 184*9. Lahore: Sang-e-Meel Publications, 2006 [1911].

_____. *Heroes of the Age: Moral Fault Lines on the Afghan Frontier*. Berkeley, CA: University of California Press, 1996.

Evans-Pritchard, E. E. *The Nuer: A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People*. Oxford: Oxford University Press, 1940.

Frenaye, Frances. *Christ Stopped at Eboli*. Carlo Levi (trans.). London: Penguin, 2000 [1947].

Fuerer-Haimendorf, Christoph von. *Morals and Merit: A Study of Values and Social Controls in South Asian Societies*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1967.

Gellner, Ernest. *Muslim Society*. Cambridge: Cambridge University Press, 1981.

Gerth, H. H. & C. Wright Mills (trans. & eds.). *From Max Weber: Essays in Sociology*. New York: Oxford University Press, 1946. at: https://bit.ly/3Bb524c

Giustozzi, Antonio. *Empires of Mud: Wars and Warlords in Afghanistan*. London: C. Hurst & Co., 2009.

_____. *The Army of Afghanistan: The Political History of a Fragile Institution*. London: C. Hurst & Co., 2016.

_____. *The Taliban at War: 2001–2018.* Oxford: Oxford University Press, 2019.

Gregorian, Vartan. *The Emergence of Modern Afghanistan: Politics of Reform and Modernisation 1880 - 1946*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1969.

Hamilton, Lillias. *A Vizier's Daughter: A Tale of the Hazara War*. Kabul: Shah M. Books, 2004 [1900].

Haroon, Sana. *Frontier of Faith: Islam in the Indo-Afghan Borderland*. London: C. Hurst & Co., 2007.

Hopkins, B. D. *The Making of Modern Afghanistan*. London: Palgrave Macmillan, 2008.

Human Rights Watch, '*Just Don't Call It a Militia': Impunity, Militias, and the 'Afghan Local Police*' (New York: 2011), accessed on 132022/9/, at: https://bit.ly/3Bz7KlN

Ibn Khaldun. *The Muqaddimah: An Introduction to History*. N. J. Dawood (ed.). Franz Rosenthal (trans.). London: Routledge and Kegan Paul, 1967.

International Crisis Group. *Afghanistan: The Problem of Pashtun Alienation*. ICG Asia report no. 62 (Kabul/ Brussels: 52003/8/). at: https://bit.ly/3LbvBuN

Johnson, Robert. *The Afghan Way of War: How and Why they Fight*. New York: Oxford University Press, 2011.

Kakar, Hasan Kawun. *Government and Society in Afghanistan: The Reign of Emir Abd al-Rahman Khan*. Austin, TX: University of Texas Press, 1979.

Lieven, Anatol. "An Afghan Tragedy: The Pashtuns, the Taliban and the State." *Survival*. vol. 63, no. 3 (May 2021).

_____. *Pakistan: A Hard Country*. London: Penguin, 2011.

Linschoten, Alex Strick van & Felix Kuehn (eds.). *Poetry of the Taliban*. Mirwais Rahmany & Hamid Stanikzai (trans.). London: C. Hurst & Co., 2012.

Malkasian, Carter. *War Comes to Garmser: Thirty Years of Conflict on the Afghan Frontier*. London: C. Hurst & Co., 2013.

Martin, Frank A. *Under the Absolute Amir of Afghanistan*. Lahore: Vanguard Books, 1998 [1912].

Martin, Mike. *An Intimate War: An Oral History of the Helmand Conflict 1978 - 2012*. London: C. Hurst & Co., 2014.

Mason, Whit (ed.). *The Rule of Law in Afghanistan: Missing in Inaction*. Cambridge: Cambridge University Press, 2011.

Merk, W. R. H. *The Mohmands*. Lahore: Vanguard Books, 1984 [1898].

Muhammad Khan, Sultan (ed.). *The Life of Abdur Rahman, Amir of Afghanistan*. Whitefish, MT: Kessinger Publishing, 2009 [1900].

Nunan, Timothy. *Humanitarian Invasion: Global Development in Cold War* Afghanistan. Cambridge: Cambridge University Press, 2016.

Priestley, Henry. *Afghanistan and Its Inhabitants*. Muhammad Hayat Khan (trans.). Lahore: Sang-e-Meel Publications, 1999 [1874].

Scott, James C. *The Art of Not Being Governed: An Anarchist History of Upland Southeast Asia*. New Haven, CT: Yale University Press, 2009.

Seddon, David. *The Berbers: Their Social and Political Organisation*. Robert Montagne (trans.). London: Frank Cass, 1973 [1931].

Siddique, Abubakar. *The Pashtun Question: The Unresolved Key to the Future of Pakistan and Afghanistan*. London: C. Hurst & Co., 2014.

Sikorski, Radek. *Dust of the Saints: A Journey Through War-torn Afghanistan*. New York: Paragon Publishers, 1990.

Sleeman, W. H. *Rambles and Recollections of an Indian Official*. Karachi: Oxford University Press, 1980 [1844].

Sultan-i-Rome. *Swat State, 1915– 1969: From Genesis to Merger*. Karachi: Oxford University Press, 2008.

van Linschoten, Alex Strick & Felix Kuehn. *An Enemy We Created: The Myth of the Taliban/Al Qaeda Merger in Afghanistan, 1970–2010*. London: C. Hurst & Co., 2012.

Beruf." *Gesammelte Politische Schriften* (1921).

Zaeef, Abdul Salam, Alex Strick van Linschoten & Felix Kuehn (eds.). *My Life with the Taliban*. London: C. Hurst & Co., 2010.